روح الاعتدال

وضعه

الفيلسوف الاجتماعي الشهير

شارل وانبر

عربته حضرة الكاتبة الفاضلة السيدة

وسيلة محمد

يطلب من ملتزم طبعه

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بشارع الفجاله بمصر

مطبعة المعارف بشارع الفجاله بمصر

obeikandl.com

اهداء الكتاب

الى

ابنتي العزيزة

أنتِ اليوم طفلة في المهد ، تسرّكِ ابتسامتي ، ويكفيكِ حنوي ، وطفلة اليوم أمّ الغد ، فاسلمي وعيشي لتدركي من الحياة دور الأمل والعمل وليكون لكِ يدٌ في نشأة المجتمع الانساني . الاّ انهُ ليعوزكِ دون ذلك العلم القليل ، والتربية الصحيحة ، والتجربة والاختبار

والزمان قُلَّب ، والغد مجهول ، فقد لا اكون الى جانبك اذ ذاك فترجعين يا عزيزتي الى هذا الكتاب ، وهو ثمرة عقل ناضجة ونتيجة اختبار صادقة ، فتؤثرين العمل بما فيهِ من الآراء السديدة على ما يحدو اليهِ نزق الشباب ، او جنون الصبا ، وطيش الرعونة

أي عزيزتي . أنهُ ليفرح نفسي أنّى تكون أن ترجعي الى ما كتبهُ شارل وانير وأمثاله من كرام الكتّاب الاجتماعيين اذا ما أعوزتكِ النصيحة ، فان في آرائهم ما قد ينوب عن نصيحة أمّ ثوَتْ ، او والد قُبر

هذه هديتي اليكِ فان تعلمتِ علماً صحيحاً وكنتِ رقيقة العواطف عرفتِ منها كم كنت أحبكِ وأرغب في نفعكِ والدتكِ

١٤ دسمبر سنة ١٩١١ عيد ميلادكِ وسيله

كلمة للمعربة

بسم الله الرحمن الرحيم

طالعت هذا الكتاب ، كما كنت اطالع غيره من الكتب الاخلاقية والاجتماعية ، في فترات الراحة والخلو من العمل ، فلم أنتهِ الى آخره حتى لحظت تغييراً محسوساً في أفكاري وآمالي وتصوراتي وأعمالي ، فشعرت إذ ذاك بقوّة تأثير الكاتب بآرائهِ السديدة وروحهِ العالية ومراميهِ الشريفة في نفوس وعقول المطالعين والقراء

هذا هو السرّ الذي حبَّب إليَّ إظهار هذا السفر الجليل بلغة البلاد ، ليكون فائدة لمن يبغي من الحياة مراميها الشريفة ، ويتطلع الى جلالها الحقيقي . وقد شجعني على هذا العمل ما رأيتهُ من إقدام بعض الآنسات الامريكيات على نقل هذا الكتاب الى الانكليزية وحفاوة أهل الولايات المتحدة ورئيسهم العظيم روزفلت بهذه المجموعة الجليلة

ونو عني العقلاء بأمثال هذه المنتخبات من الكتب ، ونقلوها الى لغة بلادهم ، لأفادوا المجتمع الذي يعيشون فيهِ ولخدموا النوع الانساني بأجمعه خدمات تذكر . أما وكلٌّ يقصر ابحاثه ومطالعاته والفائدة التي يجتنيها منها على شخصهِ فقط ، فمن البعيد ان تصل الهيئة الاجتماعية في الزمن القريب الى دور الاكتمال والتحسن الحقيقي الذي يتطلع اليهِ المصلحون

سدَّد الله خطوات العاملين والعاملات الى خير الجماعة وصلاحها ووفق غيرهم لما فيهِ النفع الشامل

مقدمة الطبعة الأولى

إذا كان المريض المحموم يتطلع دائماً الى ما يلطّف عنهُ عناءُ المرض وحرارة الحمى فكذلك النفوس المضناة من هموم هذه الحياة المرتبكة تتطلع الى التحرر من قيودها وتنزع الى البساطة والاعتدال

والاعتدال بنوع خاص لا يتقيد بالظروف والحالات التي يتطوّر فيها المجتمع، ولا بالنظريات الفلسفية العقيمة التي ينسبها واضعها الحاجة الاقتصاد والتمدين والرقيّ الاجتماعي . لأن الاعتدال روح عالية تشرف على العقل والنفس وتوجههما في السبيل السويّ بدون أن تبعدهما عن العمل لما فيهِ رقي الفرد والجماعة . فكل من يتطلع الى الاعتدال ويعمل بمقتضياته فانما يعمل حقيقة لخدمة النوع الانساني من طريق الحق والعقل والعدل ويبني الرقي والتمدين على آساسٍ ثابتة ودعائم قوية لا تعبث بها عوادي الحماقة والتطرف

وليس المراد بالاعتدال التمسك بمظاهره وانما العناية الحقيقية بما يرمي اليهِ معنى الاعتدال وروحه . واذا لم يكن في وسع الانسان اليوم أن يعيش على ما كان عليهِ الانسان الأول من السذاجة والبساطة والاعتدال في المظاهر، فانه يستطيع دائماً أن يكون كذلك بعقله وروحه وعمله وفكره وقوله . ان انسان اليوم ينحدر حقيقة على مزالق تباين السبل القويمة التي سار عليها الأولون ولكن هذا لا يمحو الانسانية

ولا يجردها من أغراضها ومقتضياتها الشريفة . فالحياة اليوم هي الحياة بالأمس ، والغرض منهـا بالأمس هو الغرض الوجيه الذي يريد الانسان تحقيقه اليوم ، وان اختلفت الوسائل التي تستعمـل لذلك والسبل التي تختار لنيل هذه الأمنية

فعدم النجاح ليس ناشئاً من اختلاف المعدّات والوسائل وانما هو نتيجة الابتعاد عن الغرض الحقيقي والتورّط في مجاهل الحيـاة المرتبكة . وان ما يحول الآن بين الانسان والحياة الحقيقية الراقية هو مما لا فائدة منه على الاطلاق ، والحياة بدونه ممكنة كل الامكان . وليس من نتائجه غير الحيلولة بين الناس و بين الحقيقة والعدل والطيبة ، أركان الحياة ودعائم السعادة وغير القاء الحجب الكثيفة بين العقـل والبصيرة و بين الهداية والحقيقة . فمن شاء أن ينظر الى جلال الحياة وجمالها مجردين من كل ما يحجب بهاءهما ، ومن رام ان يهنأ بالسعادة فعليه ان يزيح عن عينيه هـذه الغشاوة وأن يرتد عن ذلك الطريق المجهول ، الى طريق الاعتدال والحق فانهُ هو وحده الذي يؤدي الى الغرض من الحياة

شارل وانير

باريس . مايو . ١٨٩٥

مقدمة الطبعة التاسعة

كتب اليَّ أرمان كولن صاحب المطابع الشهيرة باسمه ، عقب حفلة زواج حضرها ، كتاباً رقيقاً مؤثراً يطلب اليَّ فيهِ ان اكتب شيئاً في «المعيشة البسيطة» فألفت هذا الكتاب وظهر فكان له شأن يذكر بين القراء ، وانتشر في كل انحاء القارة الأوربية انتشاراً سريعاً ثم نقل الى عدة لغات حية . فنقلتهُ الآنسة (ماري لويز هندي) الى اللغة الانكليزية لحساب شركة المطبوعات الامريكيـة « كلور » بنيويورك. وكتبت عنهُ الآنسة الكاتبـة « جراس كنج » فصولاً ضافية كان لها أحسن وقع في تلك البلاد . واطلع عليهِ الرئيس روزفلت فلم يتمالك عن الكتابة اليَّ يقول : « انني أنصح لقومي دائماً بمطالعة سفرك الجليل » وفي الحقيقة انهُ لم يترك فرصة تمرّ بغير أن ينوّه فيها بذكر هذا الكتاب الاجتماعي . حتى لقد خطب خصيصاً في هذا الشأن مرة « بيانجور » وأخرى بفلادلفيا . وزاد على ذلك ان دعاني لزيارة الولايات المتحدة . وخطب في يوم ٢٢ نوفمبر سـنة ١٩٠٤ بواشنجتون ، وكنت حاضراً فقدَّمني الى الجمهور ولا ازال أشكر له قوله « هذه هي المرة الأولى والاخيرة في زمن رئاستي أنتهزهـا فرصة لأعرف الجمهور الامريكي بهذا الكاتب الاجتماعي القدير وأعرض عليهم مؤلفه « الجليل » فانهُ الى الآن لم يظهر بين كل المؤلفات

الراقية ما أراه كفيلاً بافادة مواطني الفائدة التي أنتظرها من هذا الكتاب

وقد لحظت بنفسي تأثير أقوال الرئيس المحترم في نفوس وعقول مواطنيهِ لما رأيتهُ من تهافتهم بعد ذلك على مطالعة كتابي هذا وانتشاره بينهم انتشاراً لم يكن لغيره من المؤلفات. حتى ان الصحافة أخذت تكتب عنهُ المرار المتعددة و بعضها تنقله وتنشره تباعاً

كل هذا يدل على ان الكتاب ظهر حقيقة في إبان الحاجة اليهِ فقد أخذ الناس يسأمون الحياة المرتبكة و يشعرون بحاجتهم الى الاعتدال وتلطيف حالات هذا الارتباك المخلّ بنظام العالم، المقوّض لأركان السعادة

وانني لأرجو أن يأتي هـذا الكتاب بالغرض الشريف الذي كتب خصيصاً من أجله، وأن يلفت الناس الى معنى الحياة الحقيقية ومقتضياتها والعمل لتحقيقها والابتعاد عن كل ما عداها فان السعادة والقوة وجمال الحياة لا تكون الاَّ بالبساطة والاعتدال

شارل وانير

باريس . فبراير سنة ٩٠٥

الحيـــاة المرتبكة

من مقتضيات المدنية الحديثة تخبط المتحضر في كل لحظة من حياتهِ وارتطامه في شواغل تنغّص عليـهِ عيشه سواء في قضاء لباناته الضرورة أو في لذائذه الكمالية فهي في ظله حتى يبدّل نور الشمس بظلام الرمس

وقد زالت البساطة من كل شيء ، من الفكر والعمل واللهو وقل من الموت ايضاً . ولم يكتف الانسان بملاشاة الحسن من مميزات الحياة بل أضاف اليها بمحض اختياره عدة متاعب لا قبل له بها ولا طاقة عليها ، حتى تأفف الكثيرون من شكل الحياة الحاضرة وزخرفها الخدّاع ، وأسفوا على الماضي وبساطته لخلوه من شوائب هذا الطلاء الكاذب وأدرانه . والأدلة القوية التي تؤيد هذا القول عديدة فما يعاب في حضارة هذا العصر تعدّد الحاجات المادية واطّراد زيادتها . وقد يدفع بعضهم هـذا بأن زيادة الحاجات تبعٌ للكسب والأثراء . وهو دفع مقبول الاَّ انهُ غير وجيه وهو يستند على ان الابتكار والاختراع من دلائل الرقي . وهذا صحيح فليس من يعترض على الاغتسال وتنظيف الثياب وسكنى الأماكن الصحية والعناية بالغذاء وترقية المدارك . ولو اقتصرت الحضارة على هذه الأمور لكانت من

الحسنات أما وقد خلقت في عالم الاجتماع غير هذه الظواهر المستملحة ، سيئاتٍ باتت عبئاً على المجتمع وضرراً متفشياً لا يتقى ، وأصبحت من العادات ولوازم المدنية بغير حاجة تدعو اليها ولا ضرورة تحتمها ، وصار لها من المكانة والأثر في النفس ما للسلطة المطلقة من السلطان على الرقيق المستعبد فالنقد مقصور على أمثال هذه العادات

ولو قيل للسالفين ان المدنيـة ستصل يوماً بالانسان الى حيث يسخّر البخار والكهرباء ، ويستجلي بان البحر واقصى السماء ويحلق في الفضاء ، ويستقي من صميم الصخر ، ويذلل الصعـاب وينفرج أمامهُ ما أغلق من الاعمال الشاقة ، بلا كدح ولا نصب ، أجل لو أُنبيء السلف بمصير الخلف — لخالوا انسان هذا العصر كأنما دخل الجنـة بلا بعث ولا حساب ، ولغبطوه على النعيم والسعـادة أمل الانسان من يوم خلق وسؤله الى حين يبعث . ولو ان صورة هذا العصر بما فيهِ من الرقي الفنّي مرَّت على أذهانهم لتوهموا ان هذا الرقي هذَّب أطوار الخلائق وقلَّل من تزاحمهم على متاع الدنيا وزهوّ الحيـاة لظنوا ان الآداب والاخلاق ربت ورقت على قدر الرقيّ المادّي . ولكنَّ الواقف على اسرار المجتمع الانساني واثق من ان هذا لم يتحقق . فليس في الوجود هناء ولا سلام ولا انصراف حقيقي الى الخير

قد يظن المرء لأول لمحة ان حالتنا المعاشية أدعى للرضاء من حالة

اسلافنا الغابرين وان المرء اليوم اكثر اطمئناناً الى غده منه بالأمس. وليس الغرض هنا البحث عن وجود الأسباب الممهدة لهذه النتائج بل عن حقيقة الواقع والاجابة على هذا السؤال «هل الانسان سعيد اليوم وهل هو اكثر ارتياحاً لغده من انسان الأمس ؟ » . ألا ان كل من يعرف حياة المجتمع ووسائل العيش لا يتردد في الجزم باستياء الإنسان من حظهِ وعيشه . فليس في العالم من لم تشغله أمور الحياة ، ويخبله التفكر في أمر المستقبل . بل لم يمرّ على الانسان حين أزعجتهُ فيهِ هذه الوساوس كهذا العصر الذي ارتقت فيهِ الانسانية وطابت مواد الغذاء وحسنت المساكن وصلحت الملابس

فمغرور من يتوهم أن المعدم المعوز هو وحده من يتساءل عن العيش وسبيل الارتزاق . لأن الخوف من الفاقة وطارىء الغد يشعر بهِ المكثر والمقلّ ، ويخشاه الفقير والغني على السواء . ومن الحقائق المجهولة ان أسف المتنعم على ما لم ينل يربو على لذتهِ بما تطيب بهِ الحياة لسواه . ولا يضارع مخاوف الغني وجزعه من المستقبل غير ذعر الجبان وفرقه من المعارك ومواقف القتال . واهتمام المعدم بأمر غده لا يذكر بجانب غيره ، فان من لا تملك سوى ثوب واحد لا تتساءل عما تلبس في اليوم التالي ، ومن يقتنع بكسرة الخبز لا يقتل نفسه جزعاً ولا ييأس من الحصول عليها . ومن يفترش الأرض ولا يملك موطىء قدميهِ لا يخشى سقوط الاسعار ولا حلول الأزمات

فمن يمعن النظر فيما ذكر و يقارنهُ بما يقال من أن الحاجات المادية تزيد زيادة مطّردة مع الثروة والكسب يقرر أن الجشع على قدر الغنى وأن الاهتمام للغد يكون على قدر السعة

وليس من الناقدين من يقدر على تحديد مخاوف الغني ومتاعبه أو يعرف كمية هذه المتاعب ونوعها ومقدار تأثيرها . فلهذا السبب ولوجوده بين كل طبقات الهيئة الاجتماعية على اختلافها وتفاوتها ، نشأ بينها اضطراب عام وارتباك شامل لا يماثله غير ما يحدثهُ الطفل المدلل من عدم الاقتناع بما يغبط عليهِ وعدم ارتياحه حتى الى السعادة والنعيم

* * *

وكما ان النوع البشري لم يحصل على السعادة والهناء فكذلك هو لم يوطد دعائم السلام ولم يعرف الهدوء والطمأنينة وصارت كثرة حاجات الانسان وتنوع ميوله واهواء نفسه تحوّطه بظروف تخلق الشجار وتوجد الخصومة بينه و بين أمثاله . وفي حكم المؤكد ان الكراهية والبغضاء التي تنجم عن هذه الاسباب تكون على نسبة منعكسة مع أسبابها التافهة والخطيرة . ولو قصر التزاحم والعراك على طلب القوت الكفاف لكان الأمر نتيجة طبيعية لتنازع البقاء وان عدَّ غلطة فان للجائع المعدم شبه عذر في غلطتهِ . ولكن النزاع ناشيء عن الطمع والانانية والميل مع هوى النفس وشهواتها الفاسدة ومطامعها المادية . وليس من يذكر ان الجوع ساق الانسان الى أنواع السفالات

التي يغري بها الجشع والبخل والانصراف الى إرضاء الشهوة مع العلم بأن حبّ الذات يزداد خطورة على قدر تمكنهِ من النفس . فهل من ينكر بعد ذلك ازدياد الخصومات بين بني الانسان وتشبع القلوب والأفكار بالانانية وهي مدعاة المشاكل والنزاع ؟ وهل يجوز بعد الوقوف على هذه الحركات العدائية بين ابناء الجنس الواحد ان يتساءل امرؤ عما اذا كان الحاضر خيراً من الماضي ؟ أليس في وسع الانسان حب الخير والانصراف اليهِ مجرداً من الغاية ؟ أو ليس يستطيع نيل حاجاتهِ الضرورية بغير تعمد الشرّ والاذى ؟ ما الذى تمتاز بهِ المدنية الحاضرة وقد شيبت الحياة بمتاعب الماديات ومطالب التحضر المتعددة التي لا افتقار ولا حاجة بنا اليها ؟

ان الاميال المتنوعة مدعاة للاحقاد والخصومات . وكل من يقف نفسه ومواهبه على شهوات النفس يضاعفها حتى يضعف أمامها وتقوى عليهِ فتستعبده . واذا ما استرقتهُ فقد الارادة والاحساس ولم يعد يميز بين المليح والقبيح فخضع لسلطان الشهوات الجائر وفسد خلقه وساء مصيره

ان سمو الآداب والاخلاق هو في المقدرة على قمع الشهوات وانحطاطها وفسادها في الخنوع لمطامع النفس الامارة بالسوء فانهُ يلاشي الخلق والتأدب

وكل أماني الانسان عبد الشهوة تنحصر في نيل ما تنصرف

النفس اليه . والتزاحم على امتلاك ما في يد الغير يفتح باب الخصومة والشحناء ويحمل على انكار الحقوق ان كان ما تتطلبهُ النفس ملكاً لغير صاحبها . وما الاستئثار بملك الغير وعمل المرء على هضم حقوق سواه، والرغبة في اغتياله الا حجة دامغة على صغر النفوس وحبّ الذات

ولما كانت قيمة الاشياء تزيد وتقلّ على قدر زيادة وقلة فائدتها كان كل ما لا يأتي بفائدة عديم القيمة . وعليه فقيمة المرء بين بني جنسه ما يملك . والفقر مع شرف النفس عار والغنى وان توفّر من غير الطرق المشروعة جاه . وهذا خطأ . والحقيقة ان قيمة الانسان ليست فيما يملك وانما قيمته ذاته وصفاته . ولكن أهل هذا العصر ماديّون لا قيمة في أعينهم لغير الماديات ولذلك هم على ضلال في معرفة أقدار الناس والاحتفاظ بكرامتهم

ورب معترض يظن الحكم بفساد ما يدعى حضارة ورقياً تحاملاً أو رغبة في الحرص على القديم والانصراف عن كل رقي عمراني . حديث ولكن الحكمة في عدم الاعتداد بالظنون و بكل تحضر وهمي وفي عدم الانخداع بالظواهر الكاذبة . فليس الغرض الرجوع لبداوة الماضي وخشونة الاجيال البائدة وانما البحث عن أدواء المجتمع الانساني واظهار عيوب الحياة الاجتماعية الحالية رغبة في وجود الوسائل الملطفة لآلام الانسان وتقويم سبل العيش حتى تخفّ ارزاء الحياة وهمومها الجمّة ويزول شيء من الاعتقاد الفاسد في تخيّل السعادة والهناء بين تراكم

الحاجات المادية ووفرتها لأن هذا هو الباطل بكل معانيه

وهناك آلاف من الشواهد والأدلة تؤيد القائلين بأن الرقي الصحيح حقيق بقمع النفس عن طلب السعادة من غير طريقها و بأن التنعم ليس بالاكثار من الماديات . فالحضارة الحقيقية والتمدين القويم هما عيش الانسان في بيئة تناسبهُ وعلى قدر ما تسمح بهِ موارد كسبه وابتعاده عن الظهور بما لا يسير مع حالتهِ الحقيقية . فاذا ما ضلَّ السبيل القويم وتنكَّب عن جادة الحكمة والبصرة فكل تعب ضائع وكل سعي يزيد الضرر ويضاعف الخطر ويضيف الى مهامّ الحياة متاعب جمة ويزيد المسائل الاجتماعية اشكالاً وتعقيداً

وليست البساطة في المعيشة مقصورة على ما مرَّ ولا هي من مقتضيات العيش فقط ، ولكنهـا ضرورية لكلّ شيء حتى للتعليم والحرية . فكم نقل عن كبار الحكماء أن تلاشي الفاقة والجهل والظلم يكفي لتطهير المجتمع من الشرور ولصيرورة الأرض نعيماً أليق بالملائكة منهُ بالانسان . وقد شوهد أن زوال الفاقة لم يبدّل الحال ولم يكن سبباً رئيسياً للسعـادة كما ان التعليم لم يغير شكل الاجتماع ولم يلطف الشرور المتفشية فيه ولم تزل الأرض أرضاً والسماء سماءً ، والانسان كما كان ينفع ويعمل الخير ويرتكب الشرور ويقترف الآثام

وليس المراد بذكر ما مرَّ الحضّ على اهمال التعليم وتحصيل المعارف ولا إيصاد أبواب دور العلم بل الوثوق من أن التعليم وجميع

وسائل التحضر ليست الأ ممهدات للمدنية تختلف فيها الفائدة والضرر باختلاف خلق المتحضّر وسلوكه . وكذلك الحال في الحرية فهي اما ضارّة او صالحة تبعاً للظروف وطبائع القائمين بطلبها او المتمتعين بها . وليس معناها اطلاق يد العاتي والمشاغب والطموع والفوضوي للعبث بمصالح الناس واقلاق سكينتهم والتشويش عليهم

* * *

الحرية روح حياة راقية يتشربها المرء رويداً مع تدرج النفس في طريق الكمال . ومن مقتضياتها النظام لأنهُ ضروري للحياة والكائنات سواء في ذلك كل الخلائق من الانسان والحيوان الى ما دونهما . ولما كان النوع الانساني أرقى هذه الانواع فهو أشدّها حاجة لدقة النظام واحكامه . والنظام في الحقيقة قواعد عامة موضوعة، يراد بها وقوف الافراد عند حدودهم ، والتمتع بحقوقهم ولكنهُ مع ترقي البشرية يكون من طبائع النفس الراقية ومستلزمات الضمير التي يخضع لها . فاذا بلغ المرء هذا الحد من الرقي وعرف كيف يطيع وحي ضميره ونال منهُ حب نظام الهيئة الاجتماعية حتى أوجد في فؤاده وعقله سلطة قوية تحكمهُ وتردعهُ وهو صاغر منصاع لها فهو الانسان الجدير بالحرية . وما دام هذا الوازع النفساني غير موجود فليس الانسان صالحاً لهذا النوع من الحياة لأنهُ يثمله و يهيجهُ ثم يدفعهُ الى اسوإ مصير وكل من رقت حواسه ووشعائره فخضع لحكم العقل وحب النظام

يصعب عليهِ الخضوع للحكم المطلق بل يستحيل عليهِ ذلك كما يستحيل بقاء الجنين في احشاء أمه متى اكتملت أيامه . ومن لم يكن أهلاً لهذا الحكم فلا يدوم عليهِ كما تستحيل حياة الجنين اذا وضع قبل اكتمال شهور الحمل . هذه النتائج مقررة مسلمة والبراهين عليها لا تحصر . ولكن من عيوب الانسان تجاهله هذه القضايا البديهية مع ما لها من الاهمية والخطورة . فيجب أن يعرفها الجميع اذ انه يعسر على أي شعب ان يحصل على الديموقراطية قبل معرفتها والتشبع بروحها واقرار كل فرد بصحة مبادئها عن اقتناع وتمييز

ومن أهم اركان الحرية الطاعة والاذعان للنظام العام . وليس هذا من زخارف الحياة أو من مقتضيات اميال بعض ذوي النفوذ والسلطان ولا من صلف الحاكمين وانما هو قوانين عامة ذات رأس تنحني أمامهُ أرفع الرؤوس ويستوي أمام بطشه رائد السماء ومفترش الوضيع . وليس الغرض من هذا القول الترغيب عن الديموقراطية بل الاهتمام بجعل الانسان لائقاً لهذا النوع من الحكم وجديراً بالحرية قبل طلبها والاَّ فان النزوع اليها طفرةً يؤدي بالشعب الى مزالق السفه والفوضى والى ما لا يمكن تلافيهِ من الفتنة والثورات . واذا ما اجتلأ العقل الاسباب الحقيقية التي تنشأ عنها اضطرابات ومشاكل الحياة الاجتماعية مع تنوع عناوينها رآها منحصرة في أمر واحد هو خلط العرض بالجوهر

* * *

ان السعادة والتعليم والحرية والرقي والتمدين ليست الاَّ عرضاً

أما جوهر الأمر فهو الاهتمام بالضمير والخلق والارادة فهي الذات وكل ما عداها اعراض كمالية لا جواهر ضرورية ومع وفرة هذه الكماليات التي يمكن التخلي عنها فكم ترى الانسان شديد الافتقار الى الشيء الضروري حتى انه اذا ما تنبه ضميره او استيقظ قلبه فرام تحقيق امانيه تألم آلام الحي المقبور وروح تحت اعباء الأمور التافهة التي لا يسعه معها تنسم نسيم الحياة واستجلاء النور الساطع والضياء اللامع

فمن الواجب تجريد الحياة من الاعباء الباطلة وتحريرها من هذا الرق وتمييز مواضع الأمور واهميتها والاعتقاد بأن الوسيلة الوحيدة لرقي النوع البشري هي العناية بتهذيب الروح والخلق

وكما ان فائدة المصباح لا تقوم بحسن زخرفه ودقة صناعته ولا بنفاسة معدنه بل بمقدار ضوءه وسطعانهِ فكذلك لا يجوز تعيين مرتبة الانسان وقدر قدره بما ملكت يداه ولا بسعة عيشه ولا ببسطة جاهه لا ولا بطول باعه في العلميات او الفنيات فانما المرء بخلقهِ وادبهِ

ومع ان صور الحياة تختلف باختلاف الازمان وتفاوت العقول فاي عاقل ينكر خطر الانتقال الفجائي من طور الى طور أم مَن يقول ان الاعتدال سيء المغبة او ان خطته هي غير خطة الاصلاح المؤدية الى الغاية الشريفة ؟

روح الاعتدال

يتوهم الناس ان للاعتدال دلائل ظاهرة تدل عليهِ كعدم التأنق في الملبس واختيار المسكن البسيط وما اشبه ذلك . ولكن هذا الظن فاسد وباطل . واننا لنربأ بالناقد البصير ان يمر بهِ غنيٌّ متبجل في مركبتهِ ومتوسط حال ماشٍ على قدميهِ ومعدم يتعثر باسماله البالية فيبادر الى تقرير حكمهِ في كل من الثلاثة مستنداً على هذه الظواهر . قد يجوز أن يكون ذلك الغني المترفّه رغماً عن بسطة الرزق وسمو المركز الاجتماعي ومظاهر الجاه والثروة معتدلاً في أمره ليس عبداً للمال ولا اسيراً لحب الظهور . وقد يجوز أن يكون الرجل المتوسط قانعاً بما في يده لا يغبط الغني ولا يحسده على عزه وجاهه ولا يحتقر الفقير لحاجتهِ ولا يزدريهِ لعوزه . كما انهُ يتأتى أن يكون ذلك الفقير المعدم طموحاً لما لا يتفق مع فاقتهِ غير ميال للعمل عدواً للقناعة يمنّي نفسه بالسعة وهو عائش في ظل الخمول والبطالة

فمن أبعد الناس عن الاعتدال السائل الذي يعتاش من التسوّل وهو قادر على العمل والارتزاق وذلك المجامل الذي يقول ما لا يعتقد ارضاء لمحدثهِ واستدراراً لماله . وذلك الطفيلي المتملق الذي يعيش على موائد مقرّبيه المخدوعين في أمره . فاولئك وجودهم عالة على الغير

وحياتهم عبء على المجتمع . ولو فحصت نياتهم وافكارهم لعرفت ان امانيهم تنحصر في الظفر بما يستطاع مما يتنعم بهِ الغني الممتع . وفي عداد هؤلاء الممقوتين الطموع ومَن لا مبدأ له والمذبذب والبخيل والمتكبر والمتقلب

وليس الاعتدال صفة تختص بها طبقة من الناس دون سواها كما ان المظاهر ليست من مميزاتهِ والدلائل عليهِ . فهو موجود في كل طبقات المجتمع الانساني على السواء ويظهر على صور مختلفة واشكال متباينة . وليس المراد بهذا القول عدم وجود أدلة ظاهرة تدل عليهِ او مميزات خاصة يعرف بها اذ جل القصد من هذا التوكيد النجاة من الخلط بين الاعراض الباطلة والجواهر الحقيقية. فالاعتدال روح لا مادة . والانسان المعتدل هو الذي ينحصر اهتمامه في ان يكون انساناً (بكل معنى الكلمة) فيتكمل بكل صفات الرجولة ليكون رجلاً لا اكثر ولا اقل . وليس هذا يسيراً ينال ولا صعباً يستحيل كما يتبادر الى الذهن لأول وهلة . على انهُ لا يتأتى تحقيقهُ الاَّ اذا ارتبطت الارادة والعمل بنواميس الاجتماع وطابقت مشيئة الخالق وحكمتهِ في خلق الانسان ووجوده . ومعنى هـذا ان تقف الخلائق عند الحد المعين لكل منها وان تكون لما خلقت له فقط فيبقى الطير طيراً والحجر حجراً والانسان انساناً فلا يصير ثعلباً محتالاً ولا يمسخ وحشاً ضارياً

الحياة عبارة عن اتحاد المادة بالقوة وعملهما معاً . غير ان بعض

الماديين قد ذهلوا عن ماهية الحياة . ولما كانت رغبة الانسان واهتمامه منصرفين الى زيادة قيمة الحياة والسمو بهـا الى الأوج الأعلى فلا يمكن تشبيه الوجود بالمادة الأولى الأساسية لكل شيء . وليس الغرض ماهية الوجود بل نتيجتهُ ومؤدّاه . كما ان العبرة ليست بمادة الأثر الثمين ولكن بما فيهِ من احكام وابداع . والمواد تختلف اختلافاً نوعياً فمنها الذهب والرخام والخشب والتراب . ومع ان للذهب قيمة ثمينة فقد يسيء صانع في صنعة ما يصوغه منه فيحط من قيمته ويوفق آخر الى عمل اثر خالد من التراب لا يقدر له ثمن ولا تحد له قيمة . فالحكمة اذن في صوغ حياة الانسان وتنسيقها لتكون في اجمل واجل مظاهرها الصادقة التي ترفع قيمتها وتشرف قدرها

ومن الصفات المحسنة ذات الاعتبار في جميع الازمنة وسائر الأمكنة العدل والحب والحقيقة والحرية والاحساس والشعور . وهذه الصفات تلائم كل أفراد الهيئة الاجتماعيـة على اختلاف الطبقات في كل العصور . وليس من المحال اعتيادها والتطبع بها مهما اختلفت درجات الناس في التربية والتهذيب . ومن هذا نعرف ان قيمة الرجل ليست بماله ولا بمميزاتهِ الشخصية بل بصفاته وبالكمالات التي عني لها فالعبرة بالصفة الحقيقية لا بالرونق الظاهر

ومن البديهي انهُ لا يمكن الوصول الى هذه الغاية بدون جهد وتعب . لأن روح الاعتدال ليست مما يتوارث ولكنها جعالة جهاد

طويل وثمرة سعي متواصل

يحاول الناس استخراج القواعد من مجموع الأحوال المتغايرة . ولكن كم يلزم من الزمن والتجاريب والتعب والعناء لتقرير حقيقة صغيرة في كلمات مسطورة ؟

هذا هو حالهم في أمر التربية الأخلاقية فكم يخلطون ويتطوحون ويبحثون ويجرّبون فيضلون شأوهم ويتيهون عنهُ . ولعلَّ الانسان مع توالى العمل والتحقق من كل شيء بالغ من معرفة أسرار الحياة وحلّ رموز المشاكل حيث يستطيع استنتاج القاعدة العامة والقانون الأساسي للنظام وهو (عمل الواجب) . وكل ساعٍ الى غير هذا الغرض العام عابث بالقصد من الحياة وقاضٍ على نفسهِ بالخروج من عالم الأحياء العاملين وما هو في الوجود الاّ الحي الميت لا شأن له ولا قيمة . وممن يهملون هذا الغرض الشريف الأنانيُّ والطماع والبهيمي عبد الشهوة أولئك الذين يعبثون بحياتهم عبث الزارع بزرعه اذا حصده قبل أن يثمر وينضج . أما من يضحي حياته في سبيل الكمال فانهُ يحييها ويرقيها ويربحها ربحاً

والقواعد الاخلاقية التي تظهر شاذة لصغار العقول وقصار المدارك وتلوح لهم من الوسائل المضعفة من النشاط المقوضة لأركان الحياة لم يشاهدوها الاّ معكوسة ولم ينظروا اليها الاّ بمنظار اسود . لأن كل المبادىء السامية ترمي الى رقي الحياة والى اعداد النفس للكمالات

ولهذا ترى النزر الأعمى المضلل يحوم حول نقطة واحدة هي الحرص على الراحة والحياة المادية وهذا يخالف كل التعاليم الصحيحة العالية لأنها تدفع الانسان لبذل الحياة واحتمال النصب في سبيل استثمار المجهودات النفسية وترقية الروح للتكمل بجليل الصفات

وعلى قدر الجهد الذي يبذله الانسان لنفعه وخيره الخاص يكون مقدار تمسكه بالمبادىء التى تعب في اكتسابها واقتنع بسموها وتحقق صلاحها . وعلى قدر تمسكه بها تكون قيمته الاخلاقية ومركزه الأدبي ثم يسير في طريق الحياة وله وجهة معروفة وخطة مرسومة واثقاً من نفسهِ بعد طول التردد والشك عالماً بمجاري الأمور والاحوال بعد الجهل والتخبط فيستطيع اذ ذاك الحكم في الأمور وتمييزها بصورة لا تقبل النقد والتثريب حتى اذا تشبعت روحه من حب جلال الحياة الحقيقية وشرف المبادىء السامية وانصرفت الى الحقيقة وحب العدل بقي لذلك أثر خالد في قلبهِ لا يزول ولا يمحى وتكملت نفسه بسائر الصفات الممدوحة وصار للوجود مطلق السلطة والنفوذ فيصغر العرض أمامه ويتلاشى فيشمل النظام احوال الانسان وأعماله ويكون معتدلاً بالمعنى المقصود بالاعتدال

أنظر الى الجيش تجده قوياً كلما حسن نظامه وأحكمت قيادته . والنظام قائم باحترام المرءوس للرئيس وبالقصد الى غرض معين من طريق معروفة . فاذا ساد الخلل نزل الضعف منزلة النظام وأغار الوهن

على القوة فتركها بدداً

وليس من النظام ان يخضع القائد للجندي . وهكذا يكون الحال في شؤون الانسان والهيئة الاجتماعية فينبغي ان يخضع المرءوس للرئيس بوجه عام . فحيث ترى خللاً سائداً او ثلمة في نظام الاجتماع فكن على ثقة من ان منشأها تجاوز الفرد حدّه وشروده عن محجة الصواب . وفي كل بقعة من الأرض نبت فيها الاعتدال ووقفت نفوس ابنائها عند حدودها وقنعت بحظوظها ترى النظام تاماً كاملاً حقيقياً بأجلى مظاهره ومعانيه . فاذا ما عرفنا قدر الاعتدال قلنا ان كل تعريف له قاصر عن بيان معناه تماماً وان كل عبارة واقعة دون المرام . وكل قوى العالم وجماله وجلاله وكل المسرات الحقيقية التي تعزي الانسان وتقوي الأمل وكل الحقائق التي تضيء طريق الحياة ومهاويها المخيفة هي من نتائج الاعتدال ومن أعمال المعتدلين الذين لم تستعبدهم النفس بأميالها المتعددة فغلبوها ورموا الى الغايات الشريفة والأغراض الوجيهة السامية ولم يتركوا لحب الذات والزهو سبيلاً الى قلوبهم لأنهم عرفوا أن الرفعة الحقيقية وقيمة الحياة في العمل الجليل والذكر الخالد

الفكر والاعتدال

لا يكفي للانسان أن يسعى لترتيب اموره الدنيوية واحوال معيشته وحياتهِ بل يجب أن يهتم ايضاً بفكره فيطهره من كل الادران التي تشوبهُ وتضللهُ لأن الفكر السخيف منشأ الاختلال والفوضى . ولما كانت طريق الحياة وعرة كثيرة العقبات والمزالق وجب ان يكون الفكر سليماً صحيحاً ليتيسر له تمييز الغي من الرشد واطراح كل رأي سقيم ومعتقد باطل لا يظهر الانسان بمظهر الرجولة الصحيحة ولا ينشط بهِ الى طريق الكمال والرقي

الفكر أداة من الادوات النافعة للمجموع وليس من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها فيجب الاهتمام بهِ اهتماماً كلياً وتربيتهُ تربية كفيلة بالتثقيف والتقوية ليؤدي الوظيفة التي خلق لها والاّ فلا فارقة تميزه من خواطر الحيوانات والهامات

اطلق قرداً في مكان أحد المصورين تجده يبتهج لمرأى الرسوم والصور وادوات الرسم فيتنقل بينهـا مسروراً ثم يعود فيعبث بها فيحطم اللوحات البديعة لينظر ما وراءها ويمزق الاقمشة بانيابهِ الحادة ليرى ما في باطن صورهـا ويذوق مواد الالوان ثم يمتعض لطعمها فينثرها في ارض الغرفة ولا يترك شيئاً في مكانهِ . ولا شك

في ان القرد يسر بما يعمل ويلهو بهذا الاتلاف ولكن اماكن المصورين لم تخصص للقرود ولم تنسق ليتلفها هذا الحيوان الخبيث . فكذلك الفكر ليس مكاناً للتجارب البهلوانية ولم يخلق للّهو به واجهاده فيما لا يفيد . ومن اشد الاخطار على الانسان ان يجعل فكره لعبة يسلو بها ويلهو فلا يكون يوماً ما فكراً راقياً يميز ويدرك

ومن المضار المتفشية جنون الانسان بمعرفة قدر نفسهِ ومنزلتهِ بالنسبة للآخرين . وليس الضرر في فحص الضمير والقلب للتحقق من وجود الميول الصالحة والمبادئ الشريفة لأن هذا الفحص مما يساعد على التقويم والتكمل . وانما الضرر في الاغترار بالنفس وحب الظهور بمظهر المتفوق على الغير الممتاز عنهم . وكل عامل يقضي حياته في فحص آلة عمله على تحققهِ صلاحها يفسدها ولا يتم عملا ومَن اراد أن يمشي فليس في حاجة لطبيب يفحصهُ ويقرر قدرته على المشي فحسبهُ أن يتحقق وجود قدميهِ ويقوم عليهما ويسير في طريقهِ محترساً من السقوط مستعملاً قوته بتؤدة وحكمة لكي لا تنفد قبل الوصول الى غايتهِ . وحسب الانسان أن يكون على شئ من التعقل ليعلم انهُ خلق للعمل لا لقتل الوقت في تأمل ذاتهِ في المرآة . ولكن التعقل اصبح نادراً بين الافراد كسائر الصفات الحميدة بل اصبح من العوائد المنبوذة والصفات الخلقة التي يستعيض عنها عشاق المدنية بسواها فيضلون سواء السبيل . ومن المحقق ان الاتصاف بالشطط

والافراط والتطرف بدلاً من الارعواء والاستقامة تكون نتيجتهُ اصابة الهيئة الاجتماعية بكل انواع المسخ والبتر والتشويه وابعادها عن الحكمة واصالة الرأي

المستحدثات طارئة تتجدَّد ولكن الفكر والتعقل والتبصرة من الدعائم الأساسية التي لا تتبدل بتبدل الازمان والاحوال فمن تجرَّد منها ساء مصيره ومن حازها واحتفظ بهـا اعتدل وأمن شرّ العاقبة . وليس التعقل من الصفات الغريزية التي توجد عفواً في جميع النـاس ولكنهُ من الصفات التي تكتسب بعد عناء طويل وكد متواصل وهو كنز من أثمن الكنوز وأنفسها قدراً ولا يعرف قيمته الاّ من يكون حكيماً لا يرضيه الشطط والتطوح مع الاهواء . والعاقل من يستهين المتاعب و يستقصر الزمن الذي يلزم للتكمل بهذه الصفة الحميدة فيكون بصيراً بالأمور والعواقب حكيماً سديد الرأي . ان صاحب السيف يخاف عليهِ من التثني والتعوج ولا يتركه طعاماً للصدأ بل يتعهده بالنظافة والعناية . فاذا كان هذا حظ قطعة الفولاذ التي لا تنفع في كل آن مع تيسر وجود عوضها فما بالك بالعقل وهو الجوهر الذي يستحيل اصلاحه اذا فسد او الاستعاضة عنهُ بغيره اذا اختل ؟

وليس من العقل التشبث بمذهب الرافضين أي عدم التصديق والايمان الاّ بما يتحقق بالاختبار ذلك المذهب الجامد الذي ينكر كل ما لا تشاهده العين او تلمسهُ اليد لأن التقيُّد بهذا القيد الضيق يحصر

العقل في دائرة ضيقة و يترك الفصل في الأمور للحواس المادية فيلاشي مواهب الادراك والتمييز وصحة الحكم . وهذه المسئلة من أهم المسائل الاجتماعيـة وأشدها تعقيداً لأن نشاط العقل لمعرفة الغوامض شديد الخطر فهو أبداً يبحث عن تلك الأمور المتوارية في ظلام الغيب والتائهة في دياجير المجهول . ومن المؤكد ان البحث العقلي من أشق الأعمال واكثرها حاجة للتروي والصبر فان استقصاء الحقائق والعثور عليها ليس بالأمر الهين ولكن الحاجة الماسة تدفع الانسان الى البحث وتسهل له سبيل الاستدلال فيصل الى الحقيقة

* * *

ان مجرد الوجود لا يستدعي التعقل لأنهُ سابق له وغير مرتبط بالعلم والجهل . اذ هو وجود حيواني لا مزية له الاّ بعـد التهذيب والتثقيف . وقد خلق الانسان قبل ان يفكّر وفكر بعد ان خلق ووجد فكان وحشاً قبل رقي مداركه . وصار انساناً بالمعنى الصحيح بعد ان تحلى بحلية العقل المهذب والتميز عن معرفة . فمهد السلف سبيل الحياة للخلف واوجدوا اضواء الحقائق التي تنير ظلام الحياة وتكشف سبلها المتشعبة . فلم يبقَ على الانسان الاّ ان يتعرف ما امامهُ فيعيش آمناً ميسوراً بدلاً من أن يقضي كل حياتهِ عبثاً دون الانتهاء الى نتيجة من البحث والتنقيب

ولولا الحقائق والخطط القويمة التي اهتدى اليها السلف ودونوها

لوقفت حركة التقدم ولما خطا العالم خطوة واحدة في سبيل الرقي والكمال . لأنهُ اذا كان كل فرد يبدأ بالعمل لنفسهِ فانهُ لا ينتهي من البحث والاهتداء الى الحقائق الاَّ وهو في آخر مرحلة من العمر وقدمه على حافة القبر فتنطفئ حياته قبل أن يستفيد بما قضى العمر للحصول عليهِ . ويترك المجال لمخلوق جديد يعيد الكرّة لينتهي الى مثل هذه النهاية فلا يكون هناك مجال للتمتع بلذائذ الحياة ونعيم العيش وتكون الدنيا دار شقاء ونصب لا دار نعيم وسعادة وهذا ضلال مبين

الحياة أمد قصير وزمن لا يطول ومعترك ومضمار جهاد فمن غفل سقط قبل أن يلتفت اليهِ غيره لاشتغال كل فرد بأمر نفسهِ وانصرافهِ لمقاومة تيار التنازع والوصول الى شاطئ السلام . والفائز من عُني للنجاة جهده . فليس على الانسان الاَّ الامتثال لما هو حتم على كل نفس ومقابلة متاعب الحياة ومقتضياتها بصبر ورضاء فان التذمر لا يجدي نفعاً ولا يدفع مقدوراً . ولا يتوهمنَّ احد ان الحالة تسوء من يوم ليوم او ان العصور الغابرة كانت خيراً من الحاضرة . لأنهُ ليس في الاستطاعة الحكم على احوال الزمن القاصي حكماً صحيحاً كما لا يمكن للعين التثبّت من حقيقة الاشياء البعيدة تثبتاً تاماً . ومما لا ريب فيهِ ان حياة الانسان منذ بدء الخليقة الى الآن كانت ولم تزل مشوبة بما يتقزز منهُ ويتأفف وان اختلفت الاسباب والاعراض ولم يصل الفكر

ولا البصيرة في اي عصر للدرجة التي تكشف للمخلوق حجاب الغيب فيطل منها على المستقبل ويهتدي الى الحقائق

فلا فارق اذن بين انسان اليوم ورجل العصر البعيد كما انهُ لا فارق ايضاً في ذلك بين المرءوس والرئيس والمتعلم والعالم والصانع فكلهم عاجز عن ادراك أبعد غايات العقل والاستئثار بالفهم والحكم . فهم يقدّرون الأمور كلٌّ على قدر عقله ويتوسعون في البحث والحكم كل على قدر بصيرتهِ وسعة مداركه فتتجلى لهم الحقائق على مقدار ما لهم من وفرة الاختبار وقوة التميز

وان ما وصل اليهِ العالم من العلم والتنوير واكتشاف بعض الحقائق قد افاد المجموع فائدة مذكورة ولكنهُ لم يكشف طريق المجهول ولم يصل لحل كل مسائل الاجتماع ولم يرفع من سبيل الحياة كل الحواجز والعقبات الحائلة دون الحقائق . ولا يزال العقل يصادف طلاسم يتخبط فيها دون ان يهتدي . ولا تزال الحكمة والفلسفة تشتط في مجاهل لا حدَّ لها ولا غاية . ولكن مَن يعرف ان الظمآن يرتوي بقليل من ماء البئر يجد الحياة ممكنة باليسير الذي توفق اليهِ الانسان كما كانت ممكنة من قبل لمن جهل كل الحقائق وكتمت عنهُ اسرار الوجود ونظام العالم . فالحياة ممكنة والاعتدال في الحياة غير المحال ولا يستدعي ما لا طاقة بهِ للانسان . ومَن اعتدل فكره اعتدل قوله وانتظم عمله

والاعتدال في الفكر يستدعى التوكل والأمل والطيبة

التوكل ركون واعتماد بعد ثقة وايمان عن اعتقاد بعد تصديق لا عن وراثة واعتياد

والايمان يقوي الفكر ويقيهِ شرّ الاندفاع الى ما وراء المعلوم ويوقفهُ عند الحد الجائز ويجعله كثير الثقة باخلاق وبخلود العالم الى ما شاء الله وبحسن عناية الله بنظام الوجود وسائر الكائنات فيرتاح خاطر الانسان ويطمئن ويعيش هادئاً آمناً كما تعيش الازهار والاشجار والحيوانات وسائر المخلوقات التي لا تفكر ولا تبحث في كيفية الوجود وسر الحياة

والعقيدة الثابتة تجعل الانسان واثقاً من اشراق الصباح وانسدال الليل ونزول الأمطار في أوانها وجرى الانهار والجداول الى مصابّها ومن وجود الهواء الكافي للخلائق وسائر الحاجات الضرورية للحياة ودوام وجود هذه الضروريات لأن كل ما كان لحاجته وحكمته يكون ويبقى ولا يتلاشى . فالتوكل من أسباب الراحة والطمأنينة . ولما كان هذا المبدأ مدعاة النشاط وحب الحياة فهو يحسّن الحياة ويجمّلها

الايمان هو السر الوحيد الذي ينعش النشاط في الانسان ويجدده ويدفعهُ وراء الرزق فيسعى في مناكب الأرض ويضرب في مناحيها طلباً للعيش وضروريات الوجود فكل ما يزعزعهُ يكون شراً على الحياة من السم الزعاف . كما ان من شر المصائب التي عم ضررها على الاجتماع

واشتدت الشكوى منها انتشار الفلسفة العقيمة التي تؤدي الى تنفير الناس من الحياة وتحويل أنظارهم عن جلالها وحسنها وتصويرها في أشنع الصور وأفظع الاشكال

ولو سألت احد أولئك الدعاة عما اكتشفوه من العلاج وهل في الاستطاعة ملاشاة الحياة في ذاتها (ولا أقصد بذلك ازهاق النفس بل زوال سرّ الحياة وحقيقة الوجود) لكان الجواب سلباً . اوليس الأجدر اذن بالناس ان يحترموا سرّ الوجود ويتركوا غيرهم يتمتع بالحياة بدلاً من ان ينغصوا على أنفسهم وعلى الناس العيش ويقلقوا الراحة ؟

واذا كان المرء لا يأكل شيئاً وثق من ضرره وعدم صلاحيته للأكل أفليس الاخلق بهِ أن يطرد عنهُ كل الافكار السخيفة التي تؤذيهِ في الحياة أثمن هبات الله ومنحه للانسان ؟

لا يوجد من أولئك الفلاسفة المتشدقين بأقوالهم من أقام دليلاً منطقياً يحط من قدر الحياة وينفي سرها الإلهي العجيب . لأنهُ يجب على من يريد الدليل ان يفحص الحياة أولاً ويعرف ينبوعها وأسرارها حتى يستطيع الحكم والتعليل وذلك ليس في استطاعة الانسان ولا في قدرته . ومع وضوح هذه الحقيقة فكم نرى أولئك المشاغبين يتحمسون في صيحاتهم ونشر آرائهم كأنما هم الذين خلقوا العالم وأحاطوا علماً بما فيهِ من أسرار غامضة وعجائب مدهشة . وهذا نهاية

في الحمق وغاية في الجنون . فخير للانسان أن يغذي فكره بالآراء الصالحة ونفسه بالحقائق الثابتة بدلاً من ان يقتله بالسفسطات والاباطيل

* * *

الأمل هو الثقة بالمستقبل . والحياة في ذاتها عبارة عن رغبة وعمل ونتيجة . وكما لها بداءة فلها نقطة اتجاه ونهاية . وكل انسان يؤمل قبل ان ينال وينال بعد ان أمّل . وعلى قدر قوة الأمل ومقداره يكون المستقبل . فالأمل ضروري لأنهُ لا حياة بدونه

والقدرة التي خلقت النفس وأوجدتها بعثت فيها الأمل وحثتها على التطلع والطموح والا فلا معنى للخضوع للشرائع السماوية ولا انتظار الأجر والثواب في الدار الاخيرة والنعيم المؤمل . وكل حوادث الحاضر تدل دلالة واضحة على انهُ لا يتم شيء في الوجود بغير الامل فالعابد يعبد الله أملاً في خير الجزاء والصانع يجهد نفسه ويعمل أملاً في الاجر والتاجر يخاطر بأمواله ويكد ويكدح أملاً في الربح . فلولا الامل لما كانت عبادة ولا صناعة ولا تجارة ولا حرفة ولا مهنة . ولولا الأمل لما كان الوجود . والتاريخ اكبر شاهد على ان الأمل وحده هو الذي نشط بالخلائق الى مراقي الفلاح وذروات المجد والسؤدد ولولاه لما فاز العالم بهذا النصيب الوافر من الاثراء والرقي الادبي والعلمي . الأمل يخفف الاحمال الثقيلة ويلطف الآلام ويساعد العاثر على النهوض والمعدم على تحمل أرزاء الفقر والعوز ويحول بينه وبين

اليأس الوبيل . الأمل اكبر عزاء للمنكوب وأقوى اساس لنظام العالم

ولو قيد الانسان فكره بالحقائق الواضحة ولم يقتنع بغير الأدلة العقلية والحجج المنطقية لاستنتاج ان الموت هو النهاية الوحيدة لكل الكائنات الحية وانهُ السيف المسلول الذي يهدد الحياة في كل لحظة فيشتغل بهِ الفكر رهبةً منهُ وينظر الى الحياة من وجهها الأسود فيتلاشى الأمل ويقل نشاط العاملين وتقف حركة العالم ويتطرق الخلل والجمود الى هذا المجتمع العامل النشيط . ولكن الأمل والحمد لله باقٍ وله النفوذ الأقوى في نفوس الخلائق وافكارها وهو المنشط الوحيد الذي يجعلها تتعلق بالحياة ومتاع الدنيا فتعمل وتجدّ

فحتم على العاقل أن لا يحقر طموح النفس وتطلعها الى المستقبل بل يجب عليهِ احترام هـذا الأمل اينما كان وعلى اي صورة وجد سواء تمثل له في رأس الطائر الذي يجمع القش لبناء عشٍ لفراخهِ او في نفس الحيوان الطاحن المجروح الذي يقع ويقوم في كل خطوة من خطواتهِ ساعياً وراء رزقهِ او باحثاً عن ظلٍ ظليل يرقد فيهِ ليستريح وسواء في قلب الفلاح الذي يقضي نهـاره في الحقل عارياً يحرث ويفلح الارض ويبذر او يروي او يحصد

لنحترم الأمل ونحيّه ولو كان في الخرافات والقصص او في الأغاني والاناشيد العاميـة لأنهُ عماد القوة والمنشط الوحيد للعالم . وعليهِ مدار النظام والترقي . ولكن مما يؤسف له ان انسان اليوم

اكثر الخلائق خوفاً من المستقبل واقلها املاً فهو يخشى سقوط الرجوم واصطدام الارض باحد الكواكب او المذنبات [١] ويرقب في كل لحظة نهاية العالم ودنو الساعة الاخيرة — ويزيد هذا الخوف تكهن بعض علماء الفلك بأمثال هذه الأمور والهذيان بالنبوات المخيفة لتتناقل الصحف أسماءهم ولكي يطيرها البرق الى أنحاء المعمورة فيصدع بها الآذان ويملأ القلوب خوفاً والافواه شقشقة وأفكاً

فالحكيم مَن يثق بقدرة الخالق على تدبير ما خلق وبأن مَن أوجد النظام الالهي العجيب ليس بعاجز عن ضبطهِ واحكامهِ ، وبأن مَن خلق هذا العالم البديع لا يتركه للفناء والزوال بغير ارادتهِ ومشيئتهِ فلا تكون النهاية على ذلك الشكل الخرافي الذي تختلقهُ وتتوهمهُ العقول السخيفة . والعقول البشرية مهما ارتقت قاصرة عن ادراك كنه الكون واسراره العجيبة . وما وقف عليهِ الانسان من المعلومات تافه في جانب الحقائق المجهولة والمبهمات الغامضة الخفية . فيجب على المخلوق أن يعترف بالقصور وان يكل نظام الكون لخالقهِ ويشتغل بامورهِ الدنيوية واحواله الاجتماعية ويقوي الأمل ما استطاع ويسد المنافذ في وجه اليأس لأنهُ من العوامل القاضية على الشجاعة وحب العمل

ولماذا يتطرق اليأس الى القلوب ما دامت الشمس لم تنقطع عن

(١) لنذكر الخوف الذى ساد ايام كان مذنب هلى زائراً جونا (كعادته كل ٧٦ سنة (الناشر)

لاشراق والارض عن الانبات ؟ لماذا نيأس والحياة لم تزل كما هي ؟ فالعصفور يغرّد وهو مهتم بصنع وكره وجلب الطعام لأفراخهِ . والأم لم تزل تبسم لطفلها والوالد يسعى في طلب الرزق ليعول امرأته واولاده . لِمَ نيأس ما دامت النجوم ترصع السماء والقمر يطل بوجهه الفضي على جيوش الظلام فتتبدد وتمحى ؟ لماذا نيأس من رحمة الله ونضعف نشاطنا بأمثال هذه الاوهام والأباطيل ؟ الأمل الأمل فهو سبيل الفوز والنجاح . وحذار من اليأس فهو مدعاة الفشل والخبوط

* * *

الطيبة من لوازم الرجولة ولست من القائلين ان الكمال غريزي في الانسان المعتقدين ان منشأ الفساد العشرة او البيئة الفاسدتان . ولكنني ممن تسوءهم العادات السيئة وجلها موروث . ولو قابل الانسان أصحاب هذه السيئات بما يستحقهُ المسيء المؤذي لما بقي في العالم نزر من خلق الله . ولا أظن في الوجود من ينكر البغضاء والفساد والتعدي على الغير والاسترقاق وأشباه هـذه الرذائل التي تأباها النفوس ولا تتحملها الاّ مكرهة مغلوبة على أمرها . وليس من يشك في انهـا من اكبر الوسائل التي توتر القلوب وتملاها بالأحقاد والضغائن وتسوق الانسان سوقاً في طريق الانتقام من الظالم بأية وسيلة ومن اي طريق فلولا الطيبة واستسلام الانسان لقدرة الخالق وعدله الإلهي لفسدت الأرض وشرّبت الدماء

الطيبة ينبوع ماء حي يروي النفوس ويطفىء فيها نار الخصومة وهي من منح الله التي تحفظ النظام وتلطف شرور العالم وفجور الانسان وهي أبدية لا تزول. وجدت من ابتداء الخليقة وستبقى الى ما شاء الله على وفرة ما يناقضها ويشوه جلالها ويعمل على محوها من القلب فان لها فيهِ خصوماً عدة منها القسوة والخبث وحب السلطة والانانية والكفران بالنعمة. وأقل هذه الرذائل ينزل بالانسان الى أحط منازل الحياة وأسفل دركات الشقاء ويطوح بهِ الى بؤرة الرذيلة ويسوقهُ الى التعدي على مال الغير وحياته ولكن المألوف انتصار الطيبة على كل هذه النقائص وفوزها عليها جمعاء. وما اكثر الحوادث التي تغلبت فيها الطيبة على كل ضروب القسوة والتوحش وأخضعتها فدانت لها وصغرت

الطيبة تصلح ذات البين وتعزي المنكوب وتلطف آلام الشقي وتكمّل صاحبها وتجمله ومن خاصيّاتها التواضع والصبر على الضيم. الطيبة بلسم الجراح تمسح الدموع وتقوي الفقير على احتمال الفاقة وتضمّد القلوب المكلومة وتساعد على السماح والغفران وهي الصفة الرئيسية التي يحتاجها النوع البشري ويفتقر اليها في كل أدوار الحياة

* * *

فمن رام ان يكون على شيء من الاعتدال بالمعنى الصحيح فعليهِ بالتوكل والأمل والطيبة. وانني لا أريد تخوير عزائم المتطرفين ولا

تحذير نشاطهم كما انني لا أبغي ردع المولعين بكشف سرّ المجهول ولا زجر الباحثين عما وراء الغيب والمتعمقين في المباحث الفلسفية او العلمية وانما اروم الركون الى الحقائق بدلاً من التشبث بما لا يفيد والكد وراء ما لا يُدرك ولا ينال . فان من اسرار الحياة والمسائل الاجتماعية ما يتساوى في معرفتهِ والوقوف على غوامضهِ العالِم المفكّر والجاهل الغبي لأنها فوق قدرة الاثنين وليست في متناول العقل والادراك . فمن أراد الله بهِ خيراً وعى هذه الحقيقة بلا جدل وكف عن الضلال وارعوى عن الغي واعتدل في حياتهِ وفكره

ورب معترض يزعم ان التوكل من النظريات الدينية التي تثبط الهمم وتهمد العزائم وتمنع المخلوق من السعي والدأب على العمل . فيحسن الرد عليهِ بأن الدين نفسه فرض على الانسان العمل والسعي في طلب الرزق فقد جاء في الانجيل : بعرق جبينك تأكل خبزك . وجاء في القرآن : فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقهِ

وليس بين كل الأديان دين يدعو الى الخمول والكسل انتظاراً لفيض نعم الله و بركاته وانما كلها تدعو الى العمل والاجتهاد مع التوكل والاعتماد عليهِ تعالى

ولو سأل سائل عن احسن الاديان لما استطاع حكيم الاجابة على هذا بغير تفكر طويل ومخاطرة لأن الاديان جميعاً تدعو الى الفضائل وتحرض على اجتناب الرذائل . والعقل يتحاشى الجزم برأي معيَّن عند

ولوج مثل هذا المبحث لأنهُ لا يستطيع تفضيل شريعة على الاخرى بغير تحامل وتحيز و بغير اثارة سخط البعض على حكمهِ مع ان الحقيقة لا بدَّ وان ترضي الجميع ولا يقوم دليل على غير صحتها

فخير ما يفعل العاقل ان يضع السؤال على صورة اخرى و يسأل عن ماهية الدين القويم الصالح للدنيا وللآخرة . فيكون الجواب ان الدين القويم هو الذي ينير البصائر و يرفع قدر الحياة و يحض على العمل مع التوكل والأمل والطيبة . الدين القويم هو الذي ينتصر للخير والفضيلة و يخذل الشر والرذيلة و ينشط الانسان و يدفعهُ الى التكمل بالفضائل والصفات الحميدة والى اكتساب كل خلال الرجولة الحقة . الدين القويم هو الذي يعين على احتمال الآلام بصبر وقبول و يدعو الى احترام الغير ومراعاة حقوقهم و يساعد على التسامح و يقلل من الكبرياء والعتوّ و يحثّ على عمل الواجب

فالدين الذي تكون هذه تعاليمه هو الدين الصحيح وشريعته هي الشريعة السمحاء التي تقرب الانسان الى الله وتجعله من عباده المتقين

وكل دين تزين تعاليمه الخيلاء والكبر والافضلية على سائر المخلوقات البشرية وتدعو الى النزاع والشقاق وتدفع الى التغلب على الغير والاستئثار بارادتهم وحريتهم او ترمي الى انقياد الانسان نفسه للصغار فما تعاليم مثل ذلك الدين الا باطلة وفاسدة لا ترضي الخالق ولا المخلوق بعيدة عن محجة العقل والصراط المستقيم

فهل لا ترى في التعاليم الاولى جلالاً واعتدالاً وفي الثانية صغاراً وشططاً ؟ وهل يكون للفكر السخيف قوة على تمييز الحسن من القبيح أم يسقط بصاحبه فيكون من الضالين الذين ساؤا منقلباً وكانوا من المفسدين ؟

ألا ان مدار الحياة ورقي الاجتماع على الفكر السليم المعتدل لانهُ ينبوع الحكمة وعماد النظام وأساس الرقي والكمال

القول والاعتدال

للاعراب عن الفكر عدة وسائل أهمها القول وهو مقياس العقل وميزانه . فالعاقل من يربأ بلسانه ان يهفو وقلمه ان يشط ويجعل قوله حكيماً كفكره . والحكيم من يفكر بروية ويتكلم بصراحة

والثقة المتبادلة حلقة توثق بهـا الروابط الاجتماعية ومدار الثقة على الافراد أنفسهم ومبلغهم من الصدق والشرف فاذا ضعفت هذه الخصال قلّت الثقة واختل النظام وقضي على الراحة والأمن جميعاً

وما هذه النظرية الا حقيقة مشاهدة في المعاملات المادية والادبية. فكما يصعب التعامل مع من لا يوثق بهم فكذلك يصعب الاهتداء الى الحقيقة من أقوالهم . ومن البديهي انهُ اذا شردت الاقوال عن

محجة الصواب و بعدت النيـات عن جادّة الصدق وانخذت سبيل التضليل والاغراء كان ذلك سبباً لتعدد مشاكل الحياة وتعقيدها واختلال نظام الاحوال . وهـذا هو الواقع اليوم والمشاهد الملموس الذي لا ينكر . فالعالم مملوء بدهاة الرجال والمحتـالين الذين لا همّ لهم الا اختداع الغير وتضليلهم . فوالحالة هذه لا غرو ان يشق على الناس تبين الحقائق والاهتداء اليها في بيئة مملوءة بالمفاسد والاباطيل

* * *

لقد كانت وسائل التفاهم وتبادل المنافع في الماضي بسيطة ومختصرة وقليلة . وكان المرجح ان تحسنها يرقي المدنية الصحيحة و يكون واسطة لتقريب الشعوب بعضها من بعض وربطها بروابط المنافع المادية والادبية فيكون ذلك سبباً من اسباب السلام وتبادل الحب والاحترام

وكان المنتظر ان يعيش افراد الامة الواحدة كالاخوة فيما بينهم لكثرة الاواصر التي تربطهم ووثوق العرى التي تجمعهم معاً . وكان المؤمل ان يعملوا معاً لتقويتها وصون المنافع المشتركة . ولذلك هللت الخلائق فرحاً عند اختراع آلة الطبـاعة وتفاءلوا خيراً . وتضاعف السرور والاغتبـاط بانتشار المطبوعات وانصراف القوم الى التعليم والتثقيف وانعكافهم على مطالعة الجرائد والمطبوعات الدورية ظناً منهم ان الاضواء الكثيرة خير من الضوء الواحد وان الفوائد الجمة خير من الفائدة المفردة واعتقاداً بان انتشار الصحف والمجلات والكتب

واسطة لترقيــة الافكار وتهذيب العقول وانتشار العلم ورفع حجب الجهل عن الابصار والبصائر وتسهيل جمع وتقرير الحوادث لمن شاء من المؤرخين والكتاب . وهذه هي النتائج الصحيحة الطبيعيــة التي تتبادر الى الذهن في بادئ الامر . ولكن الأمور جرت ويا للأسف في غير هذا السبيل فجاءت النتائج بعكس ما كان ينتظر

وكأني بالناس انصرفت انظارهم الى الآلة وقوتها والى الفائدة الوقتية المتوخاة منها وذهلوا عن أمر العامل الذي يديرها وعن روحه التي هي مبعث تلك القوة وعلة تلك الفائدة فاغتنم السفسطائيون والأفاكون وذوو الأقلام المرة والألسنة الذربة فرصة الذهول هذه وبادروا الى تسميم العقول وتضليل الالبــاب بما بأتوا ينشرونهُ من المبادئ الفاسدة والاباطيل والاضاليل بحيث أصبح الوقوف على الحقائق والمبادئ الاولية ضرباً من المحال

ولئن وجد بين المطبوعات كتاب او صحيفة تنشر الحقائق مجردة من الغايات السافلة وتعمل بنزاهة لربط أواصر الصداقة بين الشعوب والأمم فهناك آلاف سواهــا ومن نوعها تفتري الكذب وتؤيد الزور لتعبث بهذه الثقة المتبادلة وتحل العرى الموثوقة وتبذر بذور الشقاق والبغضاء بما تنشره من التهم الباطلة وتقرره من الاكاذيب الملفقة وتحدثهُ من اللجب والضوضاء بلا داعٍ ولا سبب . وسواء في ذلك ما يختص بالاحوال الداخلية او الخــارجية وما يتعلق

بسائر الشؤون العمومية من تجارية وصناعية وزراعية الى غيرها . فمن العسير بل من المحال الوقوف على الحقائق مجردة من الفذلكات والتلفيقات وخاليــة من الطلاء الكاذب . وقد بات يصح القول انهُ كلما كثر الاطلاع على المطبوعات والجرائد زاد الناس ضلالا على ضلالهم . وكثيراً ما تملل المطالع من كثرة خداع الكتّاب فمزّق ما بيده من الصحف وتيقن ان العالم صار خلواً من ذوي الذمم الطاهرة اللهمّ الاّ نزراً قليلاً مجهولاً لا يمكن الاستدلال عليهِ لضياعهِ بين هذا المجموع الفاسد . ثم يعود فيسيء الظن حتى بهــذا النزر اليسير ايضاً لمــا يراه من تحرش المحررين بعضهم ببعض وافترائهم السوء والقبيح للحط من كرامة انفسهم فيحوقل آسفاً على ما وصل اليهِ المجتمع من الفساد والسقوط الادبي

وليست هــذه الحيرة بمحصورة في أفراد الشعب المعبر عنهم بالعامة او الجمهور بل يشاركهم فيها الخاصة ايضاً والمتعلم والفيلسوف والمتأدب وأرباب السياسة وأساطين العلم وعشاق الفنون ورجال الدين لأن الفساد شمل كل الطبقات حتى هال الناس كثرة انتشار الكذب والرياء والخداع . ولم تعد العين تميز الغث من السمين ولا بقي في استطاعة العقول الوقوف على الحقائق بين الترهات والاباطيل المنتشرة فبات الجميع في غرور وضلال واستوى الخادع والمخدوع والمحتال والابله الغافل . لأن نفس المرائي المحاتل لا بد له من الاعتماد على الغير

والاتكال عليهِ فيكرع من الكأس التي يقدمها لغيره فيتسرب اليهِ السم الذي يدسهُ هو لسواه . ولذا فالنتيجة العمومية هي فساد الذمم وعدم تبادل الثقة

* * *

ان المرائي والمخادع وسائر أنواع هذه الفصيلة المفسدة من اكثر الناس اعتداداً بسوء الظن وضعف الثقة بالآخرين لما يعرفونهُ من أنفسهم من خبث النيات وفساد الضمائر ولما يأتونهُ من ضروب الحيل وأنواع الخداع والتغرير . ولذلك هم اكثر الخلق عذاباً وشقاء لأن ايمانهم ضعيف ومبدأهم سافل وغايتهم الوحيدة المنفعة الشخصية فهم يصوغون القول الصيغة الملائمة لما يعود عليهم بالنفع وسيان لديهم طابقت الحقيقة أم خالفتها تمام المخالفة

هذا دأبهم في المعاملة وهم يتوقعون مثله من غيرهم فلذلك هم في شك دائم يضني الافكار ويأكل القلوب وهو السبب الاقوى لعدم تبادل الثقة ولسوء الظن بالآخرين وهو الداء الذي يتأفف منهُ أولو الالباب والكتّاب والخطباء والمعلمون ويحتقره ويمقتهُ كل الناس عامة

وليس أشدّ على نفس الحرّ الشريف من الوقوف على خداع كاتب يزخرف العبارات ويمق السطور ليخفي بينها الأباطيل الخداعة ووسائل الاغراء . فليس من الشرف أن يخدع الكاتب جمهوراً ساذجاً مملوءًا بالثقة وحسن الظن . ولا من الشهامة أن يقتل المحرر

بسموم قلمه هذه الثقة ولولاها ما عاش ولا اكتسب رزقه وقوت عائلته . ولا من المروءة تضليل المعتمدين على الذمم الطاهرة والاخلاص والصدق

ان الكاذب المنافق ليؤذي نفسه على تمادي الايام . لأن اليوم الذي يظهر فيهِ دليل الخداع والكذب سيجيء حتماً فتجلى اذ ذاك حقيقة أمره للعيون وتزول الثقة فيهِ فتنفضّ من حوله القلوب وتنفر منهُ الناس . ذلك هو يوم سقوطه من حالق وتدهوره الى الحضيض وضياع كل أمل له في الحياة لانه لا شيء أشد من سخط الجمهور على المنافق الذي يخدعهُ ويغرر بهِ ولا أصعب على الانسان من توقي هياج الشعب الساخط عند هياجه . ان الاوراق اليابسة لا تقاوم الريح الصرصر وكذلك المنافق لا يقوى على مناهضة الأمة في اندفاعها عليهِ لتثأر منه . وان اليوم الذي يتضح فيهِ الخداع والنفاق لهو اليوم الذي توصد فيهِ الأبواب في وجوه المنافقين وتسد الآذان عن سماع المكر والرياء بل وعن سماع النصح الصادق والارشاد الحق . وهذه هي الطامة الكبرى والجناية التي لا تغتفر للذين يخدعون الناس ويضيعون الثقة بالكتاب والمرشدين

واذا كانت القوانين تعتبر مزيّفي النقود جناة مجرمين لأنهم يغشّون المتعاملين في منافعهم المادية فما قولك بمن يفسد العقول والضمائر ويزيّف النفوس ويسممها بالكتابات المنتشرة والاقوال المتداولة ؟

ان الضرب على أيدي هذا النوع من الكتاب والخطباء واجب تقضي بهِ الانسانية ونظام الاجتماع لانهم يُعدمون الثقة ويميتون العقول ويزعزعون أقوى اركان السلام ويفسدون نظام العالم ويشوهون جمال الحقائق وجلالها

فمن المهم الجدير بالاعتبار العناية باللسان والقلم وتقييدهما الآ عن نشر الحقائق والافكار السديدة المعقولة . والاعتدال في القول خير من التهور المرذول . ولا شيءَ في الكتابة اقبح من استعمال العبارات المبتذلة والكلمات ذات المعاني المتعددة التي تحتمل الحسن والقبيح ولا هنالك أشرف من ذكر الحقيقة مجردة من الغاية والمصلحة الشخصية . وكل ما خالف هذا فهو خداع ممقوت مُضر بالجمهور وحطة في قدر الكاتب ووصمة على الخطيب . والرجل الكامل من كان له فكر ثابت وقول حق صريح فان الصدق وان ثقلت خطواتهُ أسرع من الباطل واضمن للفوز وتحقيق الآمال

وليس الغرض الحط من شأن الكتابة في ذاتها او منع الكتّاب من استعمال الغلو والاغراق وسائر المحسنات اللفظية او حض الناس على اهمالها فان النفس لتتوق الى هذه المحسنات وتعترف بما لها من التأثير في ابداع القول . والعقل يؤكد انها الوسيلة الفعالة ذات التأثير الشديد في ترقية الكتابة وتخريج المجيدين من الكتّاب والشعراء . ولكن من المعروف ايضاً ان أحسن المواضيع واجودها هو ما

لا يحتاج الى عناء في صوغ عباراته وتنسيق كلمه لأن الموضوع الجليل مجموعة افكار عالية تؤثر بطبيعتها فيشعر بجلالها العقل والنفس . وقد تكفي أبسط الكلمات واسهل اللغات لصوغها في قالب سهل مفهوم بدلاً من قتل الوقت واجهاد الفكر في انتخاب الكلمات ورصف العبارات التي كثيراً ما ترغم الكاتب على افساد المعنى وتشويه الفكر اذا انصرف عن جلالها الى تزويق الألفاظ . والأفكار العالية لا تحتاج الى الطلاء الغريب لتظهر في سماء رفعتها وأفق جمالها لأن قوتها في ذاتها وسموها في رجحانها واصالتها

وليس كل مَن يحسن التوشية ورصف الكلمات بالكاتب المجيد او الخطيب المفوّه . ولكن هذا اللقب من حق كل مفكر يجمع شتات المعاني الراقية والافكار السديدة في القالب اللغوي الفصيح . ولا شيء أبلغ من السهولة عند التعبير والاقناع بالأدلة المعقولة الخالية من التعقيد المضني والركاكة المملّة

ان نظرة واحدة في بعض الأحايين أو اشارة لطيفة في بعض الاحوال لتعرب عن انفعال نفساني او ألم شديد او أخلاص او سرور او حزن اعراباً لا تؤديه أبلغ العبارات في كل لغات العالم . ولا يتأتى للانسان التعبير عن حقيقة عواطفهِ وشعوره الا بأبسط العبارات وأسهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة والتأثير المراد من شرح أسرار القلوب وخفايا الصدور . ولا تتأتى المحاجّة الا بالحقائق واللغة السلسة .

والاعتدال في القول عند الشرح اكثر اقناعاً من العبارات المعقدة والتهوّس في الجدل المطوّل المملّ لأن الاعتدال في القول اكثر فائدة للقائل من الشطط والحدة وصالح لكل الازمان ومحمود في كل المواقف

ولا شيء أنجع من الصدق في الرواية والايجاز في الاعراب عن اعتقاد راسخ او عند شرح العواطف والاحساسات النفسية سواء كان ذلك في المواقف العمومية او في المفاوضات الخصوصية . وليس أوقع في نفس المطالع او السامع من الكلمات القليلة التي تصدر حقيقة من القلب لتصل الى القلب . اما الكلمات المنتقاة للتوشية والتحسين اللفظي فانها كالزخارف المادية التي تساوم بالمال الكثير ولا تؤدي فائدة جزيلة لمن يبتاعها . ولما كان الغرض من القول او الكتابة الاعراب عما في الفكر كان من الواجب تأدية ذلك بما لا يزيد عن المعنى خوفاً من ملل السامع او المطالع

كم من الخطباء غرضهم الوحيد من الخطابة الوقوف بين الجماهير لسماع تصفيقهم الحاد بعد ملء الآذان بكثير من العبارات المنتخبة ؟ وكم من السامعين يكتفون بالسماع فقط و بالتلذّذ ببلاغة المقول فاذا ما اجتازوا باب المكان نسوا ما سمعوه وأعجبوا به والتهوا بالمشاهد الجديدة عن حديث ذلك المهذار الصدّاح ؟ ولو كان هذا مبلغ تأثير ما يقال و يكتب في النفوس والعقول لكانت نتائج التفكير والتحبير

مجموعة من الخطابات المنمقة والكتابات المزخرفة وخليطاً من القطع التمثيلية وضعت كلها للهو والتلذذ بها حيناً من الوقت ووقفت فائدتها عند هذا الحدّ كأن مهمة العقل مقصورة على ذلك بغير محاولة اكتساب الفوائد الجمة التي تمحصّها العقول وتبحث عنها في شتات الحوادث و بين صنوف الأباطيل

ان ارتفاع صوت العاطلين الذين لا همَّ لهم الا الصياح والضوضاء بغية الشهرة والظهور يغري الجمهور ويضلله وينسيهِ ان العامل المفيد اكثر الناس هدوءا وأقلهم جلبة وينسيهِ ان كثرة الاعلان تدل على عكس المعان عنهُ . فلولا فراغ جوف الطبل لما أزعج صوته الفضاء . فالصمت خير من القول الهراء والسكون أفضل من الجلبة. والقوة التي لا تستنفد في التهوس تدّخر للعمل المفيد وتكون ربحاً من غير عناء ولا خسارة . ألا ترى ان الباخرة التي تستنفد بخارها في الصفير وازعاج الكون بصراخها لا تجد في مستودعها قوَّة لمواصلة السير والوصول الى غايتها ؟

ان من درس احوال الأمم وطبائع الافراد يلاحظ ان الكسول يستعمل في حديثهِ العبارات المقتضبة بخلاف الثرثار والأحمق . ويجد أن العاقل المعتدل يقتصر على الموجز الكافي فيكون لفظ عبارته على قدر المعنى الذي وضعت له . فاذا كانت اللغات تختلف باختلاف الخصال والامزجة فانها تختلف أيضاً باختلاف الازمان والعصور حتى

أن من يقارن بين لغة العصر الحاضر والزمن المنصرم لايلبث ان يرى فرقاً واضحاً وتميزاً جلياً فيتحقق ان كتاب العصر الغابر كانوا يكتبون بلغة أوجز وأبلغ خاليةٍ من التعاقيد والحواشي التي تحرج المطالع وتضني فكره دون تمييز الغرض منها بعيدةٍ عن المبالغات التي تحول بين العقل والحقيقة الكاملة . ويجد أيضاً أن كتاب هذا الآن أقل ادراكاً من سالفيهم وإلماماً بشؤون الكتابة . ويجد أن الاقلام في هذا العصر أقل ثباتاً في الايدي وأكثر شططاً وتخبطاً

* * *

من الناس من يصفق للكاتب الذي يكتب بحماس وتطرف ويطرئ ويفتخر بمن يرسل من جوف قلمه سيالاً من النار ولكنهُ لا يلبث ان يحترق بهذا اللسان المندلع . هذا النوع من الكتابة منتشر وهو الخطر الذي يجب اتقاؤه والضرر الذي يتحتم على الحكيم تحاشيه والتنكُّب عنهُ لأن الشطط والغلوّ في الكتابة لا ينتجان غير اغراء العقول وتضليل الأفكار وإبعاد المطالع عن مركز الحقيقة فتكون النهاية سوء الظن وضعف الثقة وتوتر العلائق بين الأفراد والجماعات والتشديد في المعاملة وفساد الاحكام لجهل الحقائق وفقد الأمن واخلال النظام وفساد الاخلاق . وكفى بهذه النتائج السيئة سبباً للسقوط التام والموت الأدبي

فالمصلح الحقيقي من يطلب لقومه ولإخوانه اعتدالاً في الكتابة

والخطابة ونشر ما يكون علاجاً للنفوس ودواء للعقول ووسيلة لرقي المجتمع الانساني أدبياً ومادياً . وليس الغرض منع الكتاب والشعراء وأرباب الفنون عن الابداع والاجادة وانما العناية بما يفيد ولا يضر لأن الفكرة الصالحة توافق كل المشارب وتصلح لكل زمان ومكان كما ان المصلحة العامة لا تكون لفرد دون الآخر ولا تختص بفريق واحد أو تنحصر في جماعة أو طائفة بذاتها

ان ينابيع الارشاد والموعظة والهداية عامة تستقي منها كل العقول والأفكار فيردها البعض ويكون صالحاً فيبذل للناس نصحاً وهدى ويتسمم بها البعض لتسمم نفسه بالشر والخبث فلا تنطق أفواههم الا بسخافة ولغو . والنوع الاول روح تبعث في النفوس القوة وتدعو الى العظمة والرقي والحياة . والنوع الثاني طامة على العقول والنفوس وسبب للهوان والصغار والسقوط اذا انتشرت تعاليمه وتغذت بها العقول وتشبعت بها القلوب

فخير المحبين لبلادهم ووطنهم من يدعو ذوي الحكمة لارشاد الناس وابعادهم عن الشطط وردعهم عن التطرف الوبيل وعن التطوح في مهاب العواصف ومختلف الرياح. فيرتقي المجموع بارتقاء مدارك الجماعات ويعتدل الشعب باعتدال الفرد وتعيش الأمة هادئة مطمئنة ينشط بها العقل الى مدارج الرقي بعيدة عن مزالق السقوط والهوان فان من يسير في الطريق السوي يأمن العثار ومن يجمح في المزالق يتدهور

ويتحطم . وان زلّات اللسان والقلم ليست مما يستهان به فقد تودي بالفرد بل وبالامم برمتهـا . وربّ كلمة كانت سبباً في حرب عوان ووبال عميم !

الواجب والاعتدال

عندما تكلم الطفل في شأن لا يروقهُ تراه يجتهد أن يشرد بك عن الموضوع فيلفتك الى حمامة تطعم أفراخها او يشير الى سائق يضرب جياده أو يكثر عليك الأسئلة المملة مكراً منهُ فتضيق ذرعاً وينفد صبرك

يكاد يكون هذا الشأن شأن الانسان ازاء الواجب فيختلق من الاعذار ما يخاله مقبولاً يشفع له عند التقصير او الاحجام عن واجب الانسان الحيّ المميز . وأول سبب يتعلق بهِ المعتذر المقصّر هو التساؤل عن حقيقة الواجب . وان الغرور الذي ملك من المقصرين نفوسهم وعقولهم وحبس ارادتهم عن الانصراف الى اداء الواجب يستند على ان من دعائم الواجب الحرية وهي مسألة معقدة لم يهتـدِ العالم الى حلّهـا حلاً يرضي الناس جميعاً والبحث فيها يفضي بالباحث الى التعمق في سائر الأمور فلا يمكن الاعتداد بها ولا الاعتراف بكونها من أقوى اركان الواجب

ومن ينظر هذا القول نظراً سطحياً يتوهمهُ حقيقة لا اعتراض على صحتها . ولو أن امور الحياة نظريات عقلية فقط لما وسع الباحث ان يعنى بأمر الواجب قبل البتّ في مشكلة الحرية وحلّ عقدتها وتعريفها تعريفاً تاماً . ولكن الحياة ليست نظرية لكونها حركة عملية سبقت النظريات وواضعيها . وأنى لنا ان نوقف الحياة وحركتها الدائمة ريثما يصل الباحثون الى حلّ النظريات المجهولة المختلف فيها بين المفكرين ؟ فلا يتوقف اداء الواجب على معرفة حقيقة الحرية وحدودها واعتراف الناس بها لأن شأن الحرية شأن كل المسائل المعقدة التي لم تزل بين أيدي الباحثين وتحت أنظارهم بدون ان تقف حركة العالم. فها هي الخلائق لا تزال تتعامل والتضامن موجود فعلاً بين الناس ومسؤولية البعض أمام البعض الآخر محدودة على قدر الامكان بشكل يكفل بعض الراحة والنظام العام

ولكن المشتغل بالعلوم النظرية لا يعتد بغير نظرياته العقلية ولا يحفل بالحركات العملية ولا يتعرض بتاتاً لاثباتها او لدحضها ولا يعمل شيئاً لرد خصومه في الفكر والرأي عن المنهج الذي يراه خطأ وغير قويم . فلا مبرّر من تقاعده عن معرفة الواجب الانساني وادائه قبل معرفة كنهه وحقيقته وحدوده . فالطفل لا يعرف الأزمنة والمواقيت ومع ذلك فهي تمرّ عليه . والصبي يجهل تقدير المسافات وتحديدها ولكنه يمشيها ويقطعها . فلا مندوحة اذن عن اداء الواجب قبل

معرفة كل قيوده وروابطه وسبر الابحاث والآراء التي وضعت بشأنه لأن الواجبات الادبية عامة . وللانسان أن يخضع لهـا فيكون انساناً بالمعنى الصحيح او يخالفها فيسقط ويبتذل لدى العارفين بواجب الانسان فلا تفيده الاعذار مهما اختلق منها وتنطلق عليه ألسنة الناقدين كل انطلاق ولا أقل من أن يقال له « انت انسان كسائر الناس لك حقوق وعليك واجبات فكما انك لا تتجاوز عمّا لك فكذلك يتحتم أن تؤدي ما عليك سواء لبلادك او لابنائك او لذويك او للنـاس عامة والجهل وعدم استيفاء البحث والتقرير لا يشفع ولا يمنع »

وليس الغرض حمل الناس على ترك الابحاث الفلسفية والاستقرآات الدقيقة لمعرفة الحقـائق الادبية واستجلاء غوامض المسائل الاخلاقية التي استعصى حلّها حتى الآن فكل سعي في هذا السبيل ممدوح ومحمود . ولكن المراد عدم توقف الباحث عن اداء الواجب الانساني قبل أن ينتهي من ابحاثه . والعاقل مَن يتذكر دائماً كونه خلق قبل أن توضع هـذه النظريات وقبل أن تخلق هذه المشكلات وقد خلق الواجب مع الانسان فهو سابق لها . فالرجل الحقيق بهذا اللقب مَن يؤدي واجبات الرجولة

والخبير بضمائر الناس وخفايا القلوب لا يشك في كثرة الاعتراضات التي يعترض بها على ما مرّ . ولكن من تسوّل له نفسه الفرار من واجب الانسان لا يخجل طبعاً من انتحال الاسباب المبررة للسقوط الادبي

* * *

من الصعب أن يتخبط الرجل في طريق الواجب المجهول وأن يتلمس في الظلام طريق الهدى والسبيل القويم. وعسير عليه أن يهتدي بين المتناقضات والاختلافات العديدة التي تدور حول الواجب وفروض الانسانية. وقد يكون الواجب في بعض الأحايين فوق الطاقة وفي غير وسع المرء. ولكن من المؤكد ندرة هذه الاحوال الحرجة التي تستدعيها بعض الاضطرابات الاستثنائية. وخير ما يعمل الانسان في تلك المواقف أن يلزم الأناة والحذر لأن الذي يقبل عذر من يكبو في الطريق المظلم المجهول ويشفق على المحارب أن يقهر بين نارين لا يتردد في الرفق بمن يقصّر عن ضعف او يسقط رغماً عنه سقوطاً ادبياً ما دامت القوى التي تغالبه فوق طاقته

وليس السقوط الاجباري عاباً على الساقط ولا يجوز توجيه الانتقاد والعذل الى المقصّر المرغم على التقصير. ولا يصح أن يُقصر الكلام على ذلك الواجب المتعذر او المستحيل اداؤه بل يجب أن يتناول السهل الذي يتسنى لكل انسان القيام به بدون اجهاد النفس ولا استنفاد القوة ولا تبذير المتاع. ان المهم انما هو اداء الواجب الممكن فتعدد القائمين به بين الافراد يخفف ويلات المجتمع الانساني ويلطّف الحال

وليس العار على من يقصر في القيام باعباء الواجبات الثقيلة بل

العار كل العار على من يحجم عن تأدية الممكن السهل منها اهمالا وتقصيراً

ولو ان واحداً من ذوي اليسار والمراكز السامية يتخلى عن عرش نعيمه ويطوف خلال صفوف الناس ليخفف ويلاتهم ويمد للمنكودين منهم يد المساعدة والمعونة فلا يلبث أن يرى في هذه البيئة ما لا يحصى من أنواع الشقاء الذي لم يترك داراً الاّ دخلها ولا عائلة الاّ حطّ بين أفرادها فيقف على كثير من أنواع الآلام النفسية والجسدية التي يعانيها القوم ويئنون منها في كل لحظة . وكلما اختلط بأولئك الافراد ودقق النظر في حالتهم المعيشية اكتشف من أنواع البؤس ونكد العيش ما يهوله ويقصر همته حتى ليتصوّر أن تخفيف هذه الكوارث وتلطيف حال أولئك المتعسين البائسين ليس في طاقة أحد من الناس مهما أوتي من حب الخير والسعة التي تخوّله الأخذ بأيدي المعوزين والبؤساء لوفرة عدد المنكودين واتساع الدائرة التي يخيّم على من فيها الشقاء ويحكم فيها البؤس . ومع ميل الكرام الى بذل ما في الوسع من المساعدة ترى الحيرة تأخذهم أمام هذا المشهد المخيف فيتساءلون عن فائدة ما يقدّم من المساعدة ويعمل من الطيبات وهو لا يشفي الغلّة ولا يدفع الغائلة . ومنهم من يروّعهُ اليأس فيكفّ عن المبرّات مع أن قلبه يتقطع إشفاقاً وحنوًا على ذلك الفريق المنكود . وهذا هو عين الخطأ ومنتهى الخطل لأن مساعدة المنكوب واجبة على أخيهِ الانسان القادر

على قدر ما يستطيع. فليس حتماً عليهِ أن يُنقذ العالم من مخالب الشقاء ويدفع عن كل المنكوبين عاديات الدهر وصروف الزمان ويترك هذه الأرض سماء . فما كلف الله نفساً فوق طاقتها

فالعاقل من يرشد هـذا الفريق اليائس الى محجة الصواب ويهديهم الى عمل الخير المستطاع لأن الكفّ عن المساعدة وان قلّت يعدُّ ضرراً واسع الأذى . والواجب في مثل حالتنا الاجتماعية أن يساعد الانسان أخاه بما في استطاعتهِ وأن يتخذ من البؤساء والمتعسين اخواناً يواسيهم ويلطف آلامهم وان كانت هذه المساعدة غير محسة في جانب المصائب التي تحوط جزءاً عظيماً من النوع الانساني فان فائدتها محققة وأقلّ من ينالها فرد من ابنـاء هذا النوع . وربما اقتدى بالكريم غيره فيكثر عدد العاملين على نصرة الضعفاء والمنكودين وتحسن الحال بعض الشيء وتخف على تلك البيئة وطأة الفاقة فتجفّ جذور الحقد في قلوب البائسين الذين يسخطون على الكون ومن فيهِ وتقوى الرابطة الانسانية بين سائر الطوائف فيقلّ الشر ويجد الخير سبيلاً ممهدة وأرضاً خصبة . وكلما زاد العاملون قلّ الشقاء وتقطعت أوصال البؤس

واذا انفرد الجواد بصنع الخير فان القلوب تعطف على عمله والألسنة تحمد صنيعه ولا ينكر المكابرون ما بذل من الحسنات لأداء الواجب الانساني . وماذا يريد المرء بعد أن يرضى ضميره عن عمله

المبرور ويعترف الناس باستقامته وقيامه بما تستدعيه المروءة والانسانية ؟ ليعرف الناس أن الطمع ذلك الداء الذي يوسع دائرة الأحلام والأوهام ويغرّر بالناس لم يصل بصاحبه يوماً الى ما يؤمل مع ما يعانيه من المشاق وما يبذله من المجهودات للحصول على أماني النفس الجشعة . والى العاقل كل حوادث الماضي والحاضر فمن المحال أن يجد فيها الاّ ما يؤيد هذا القول

* * *

سرّ النجاح المؤكد في حسن التفكير ودقة العمل وطول الأناة والتعقل والاهتمام بكل شيء حتى بالأمور الطفيفة الحقيرة لكونها دعامة الفوز وواسطة للحصول على النتائج المنشودة . ولكن الناس يهملون هذا الأمر ويتناسون هذه الحقيقة . فليتذكر الغافل أن الغريق لينجو من لجة البحر الهائج على قطعة من لوح او مجذاف مكسور . وما أشبه الحياة بلجة البحر والمنكوب بالغريق فليتمسكنّ جهده بما يستهين به فربما كان ذلك الشيء الحقير سفينة الخلاص وفلك النجاة والسلامة . ألا إن احتقار الصغائر لسيء العاقبة فان معظم النار من مستصغر الشرر وان الثروة الطائلة تجمع درهماً فدرهماً

ان عبر الدهر كثيرة وصروف الزمن جمة عديدة وقد يحدث أن يخسر المرء ماله وتنزل به الفاقة او يفقد عزيزاً عليه او تضيع امام عينيه ثمرة جهد شديد وعمل شاق وصبر طويل فيعجزه استرداد

الثروة واحياء الميت واستعادة الضائع والتعوّض من المفقود فتتلاشى قوة المنكوب وهمته ويقف مكتوف اليدين خائر العزيمة أمام هـذه الكوارث النازلة ثم يتراخى في شؤون حياته الخاصة ولا يعود يهتم لحاجات بيتهِ وتنقطع عنايته باطفاله

هذه هي النتائج المعروفة التي نشاهدها أثر المصائب العديدة التي تنتاب الناس وتنزل عليهم بهموم النفس وآلام القلب . وهذا خطأ مغفور ولكنه خطر شديد وخيم العاقبة ينتقل بالمنكوب من حال سيئة الى أخرى أسوأ منها . فجدير بمن خسر أن يجمع القليل الباقي ويفرغ جهده في الحرص عليه والسعي في انمائه واستثماره لعله يدرك بعد قليل ما يعزّيه وينسيه ألم الضائع المفقود . فالسعي والعمل يخففان من لوعة المصاب والاستسلام والاستكانة يزيدان الألم ويدميان القلب المقروح . والتعلق بالقليل الباقي أسلم عاقبة من اليأس الذي يلاشي حتى البقية الباقية . والتشدد في مقاومة الكوارث والتصبر في احتمال الآلام خير من الانحدار والسقوط تحت أعباء الهموم النفسية . والوقوف في وجه النازلة ومقابلة الخطر خير من الهرب والفرار لأن المقدور صائر لا محالة

وليتذكر الغافل أن نفراً قليلاً من الناس عمروا الارض بعد الطوفان بعد دمارها ومن نسلهم ظهرت هذه الملايين العديدة التي تضيق بهم المسكونة . وأن اليسر لا بدَّ وأن يعقب العسر وان الفرج لا يأتي الاَّ

حين تشتد الأزمات . وكم حياة ضاعت لأوهن الأسباب وكم منكوب عزّ بعد ذلّ وكرم بعد هوان وامتهان :

كل حوادث التاريخ تؤيد هـذا القول وتؤكد للباحث أن المصائب العظيمة والرفعة والسمو قد تأتي عن أحقر الأسباب شأناً فليس من الحكمة اهمال الصغائر . وعلى الانسان الثبـات والصبر ومعاودة الكرة عقب الفشل فانها سبيل الفوز وسر النجاح

* * *

من الغريب ان شيئاً من الوهن أو الاهمال يغشى أبصار الخلائق و بصائرهم فيمنعهم من معرفة الواجب وتقديره وادائه فينظرون اليه ممسوخاً أو من جانب واحد مع انهم ينشطون ويتشددون لاكتشاف الغوامض البعيدة على نظر الانسان ويتشوقون الى معرفة ما لا يضرّ ولا ينفع فيقضون على جزء عظيم من الارادة والقوة بالتعلق بأمثال هذه الاوهام . وأي فائدة تعود على الانسانيـة من ترديد عبارات الاشفاق والحنو والاهتمام للخير العام والعطف على المجهولين الذين أخنى عليهم الدهر بخطوبه وهم في أنحاء الارض القاصية بعيدين عن الآذان والأبصار ؟ ماذا تفيد هذه الظواهر وماذا ينفع التشدّق بدعوة النـاس الى عمل الخير في مجاهل هذه السبل مع كون الآذان تكاد تُصمّ من أصوات البائسين القريبين منا والقلوب في الصدور منفطرة مكسورة من جراء ما تسمع من أنين المنكوبين الذين تراهم أعيننا وتلمسهم أيدينا ونعثر بهم

في كل خطوة من خطواتنا ؟

أو ليس من الخطأ الفاحش أن يتجشم الرجل أهوال الأسفار ليعرف ضروب النوع البشري ويرحل الرحلات العديدة لهذا الغرض بينما هو يجهل كل الجهل أبناء بلده كأنما هم من غير الآدميين الذين يفتش عن أنواعهم ويبحث عن ماهيتهم . فلا يحفل بمعرفتهم ولا يحدث نفسه بحاجتهم الى التعليم والتربيـــة كأنهُ يظن انهُ لا يعنيه شيء من شؤون معيشتهم وراحتهم أو شقائهم . ولا ينظر في أمر حكومتهم ومعاملتها لهم بل لقد تراه لا يسعى حتى في معرفة الذين يظلهم واياه سقف واحد ولو كانوا مجهدين أنفسهم في خدمته واكتساب رضائه . وقد يجهل أيضاً أو يتجاهل حال العمال الذين يعدون له معدّات النعيم والرفاه ولا يعبأ بشأن سائر الخلائق الذين تربطه بهم عدة روابط اجتماعية لاغنى لامرء عنها

ولست لأدري هل ذلك جهل بالامور وسوء تصرف غير مقصود أم هو اهمال عن احتقار واستهانة بهـــذا الخليط الآدمي ؟ وهنالك ما هو أفظع من ذلك فان بعض النساء لا يعرفن عن أزواجهن شيئاً كأنهم غرباء عنهنّ وكذلك الازواج تراهم على جهـل بنسائهم كأنهنّ في غير عصمة الرجال . وكم يجهل الكثيرون شأن أولادهم والوسائل المتبعة في تربيتهم وتهذيبهم ولا يعرفون أفكارهم ونياتهم ولا يهتمون لشيء من الاخطار التي تتهدّدهم أو الآمال التي تملأ قلوبهم

كأن هذه الأمور تافهة حقيرة أو كأنها لا تعنيهم قط . وكما ترى الآباء لا يعرفون كثيراً عن ابنائهم فكذلك ترى الابناء لا يعرفون شيئاً عن والديهم فهم يجهلون ما يصيبهم من شقاء أو ينالون من نعيم وسعادة

ولست أعني بمن ذكرت القبائل الهمجية التي لا تكاد توجد علاقة بين بطونها وأفخاذها حتى ولا بين أفراد العائلة الواحدة منها . ولكنني أعني الهيئات الراقية من كل أمة والتي هي عنوان كمال الشعوب ورقي البلاد أولئك السراة الذين ألهاهم ما هم فيه حتى عن أعزّ الناس لديهم وأقربهم منهم فصرفوا أنظارهم الى ما وراء الافق فلم يعودوا يبصرون ما امام أعينهم ولا ما تحت أرجلهم حتى داسوا أقدس ما يجب على الرجل نحو ذويه وعائلته ومواطنيه . وأعماهم التطلع الى الشهرة من وراء التظاهر بعمل الواجبات العظيمة الخطيرة عن اداء الواجب المعتدل السهل المفروض اداؤه نحو من يعولون من الأبناء أو من يتصل بهم من الاقرباء . فان قام بها ومدّ يده لنصرة الغير كان فضلاً منهُ وان أهملها وتطلع الى ما يبغي به الشهرة والظهور عِيبَ عليه النقص وكان ما يبنيه على غير اساس يدكّه الكلم ويمحوه القدح القليل والذمّ من الناس

فليكن الرجل حكيماً قبل كل شيء يقوم بما عليه لنفسه فأفراد عائلته فأبناء بلدته فمواطنيه فاذا كان في وسعه فوق ذلك وعمل خيراً شكر وأثيب

إن من لا يرتب عمله يلهو بما لا يفيد ولا ينفع عما يفيد وينفع . وكل من يشتغل بما لا يعنيه مقصّر في ما فرض عليه وآت بدليل على حمقه وجهله وغباوته . وهذه هي أقوى الاسباب التي تربك الهيئة الاجتماعية وتجعل الخلل يتطرق اليها ويشوش مجرى الامور

ومن الناس من يقول أن المرء مسؤول عن إصلاح ما أفسد وهذا حق لا غبار عليه. ولكنه من باب الصالح قولاً لا فعلاً . ونتيجة الاعتداد بهذه الدعوى هي ترك الفاسد فاسداً حتى يوجد المفسد فيكلف اصلاح ما أتلف . ولست أدري كيف يصلح الفاسد اذا لم يوجد المتلف أو اذا هو وجد وأبى الاصلاح أو لم يقدر عليه ؟

اذا كان المطر يتطرق اليك من سقفك الخرب فهل تتركه يُتلف أثاث البيت ورياشه ريثما تجد العامل الذي كان سبب هذا الاتلاف ؟ وان كانت الريح تنفذ الى غرفتك من الزجاج المكسور فهل تتركه على حاله من التلف حتى تجد من كسره وحطمهُ ؟ ان الصبيان وحدهم هم الذين يتشبثون بهذه الآراء السخيفة وكثيراً ما نرى الطفل يقول انني لم ألقِ هذا الشيء ولذلك لا أرفعهُ . وان الكثيرين لينتحون هذا النحو ولكن العاقل منهم من يبادر الى اصلاح المختل لأن الاعتماد على تلك النظرية الصحيحة عقلاً يوقف حركة الاعمال ولا يأتي بنتيجة غير العطلة والتأخير . فيجب أن يتلاشى هذا الاعتقاد الراسخ في أذهاننا ويجب أن نتذكر جميعاً ان ما يتلفهُ الواحد يصلحهُ الآخر لأن

هذا هو الواقع فعلاً والمشاهد في كل أدوار الحياة وحوادثها الجمة. فالبعض يتلف والبعض يرمّ. والبعض يخلق المشاكل والمعارك والبعض يصلح ذات البين ويحول بين المتعاركين. والبعض يثير الاشجان ويستنزف دموع الأعين والبعض يعزّي ويواسي ويلطف الأحزان. والبعض يسطو على الأعراض والأموال والأنفس والبعض يضحي نفسه للدفاع عن الانسانية ويقوم في وجه الشر والأشرار. هذا هو حال العالم ونظام الخلائق لا تبديل فيهِ ولا تحوير. هكذا نشأ الناس وهكذا يبقون الى الأبد. تلك قضية عقلية ولكنها مما تنحني له الرؤوس ولا يكابر في صحتهِ المكابرون. والنتيجة من كل ما ذكر هي وجوب المبادرة الى اصلاح ما فسد سواء توفق المرء الى معرفة المفسدين أم لم يتوفق. والتجارب الكثيرة علّمت الناس ان لا يعتمدوا على المفسدين لاصلاح ما أتوه من الضرر والافساد

الانسان في حاجة الى قوّة تساعده على القيام بالواجب وان سهل واعتدل. فما هو نوع هذه القوة وأين توجد؟ ان الواجب لحملٌ على المرء يثقل عليهِ وينفر منهُ إن لم يكن يعرف قدر نفسه ويرغب في اداء ما عليهِ رغبة خالصة بلا تمليق ولا رهبة. وكثيراً ما يفر الانسان من الواجب وكلما اشتد طلبه وضرورته كلما اختلق سبلاً للتخلص والافلات منهُ. وشأنه في ذلك شأن اللص الماهر الذي يعرف كيف يفرُّ من وجه العدالة ويضلل انظار الشرطيّ فان قبض عليه فانما يسوقه الى السجن

لا الى الطريق القويم والسبيل السوي

وليس الانسان الكامل من يؤدي ما عليه طوعاً للأمر والنهي ولا تلك الوسيلة بالدواء الناجع الذي يشفي الانسانية من داء التقصير ومرض الاهمال . بل لا بدَّ من الانصراف الى ذلك حباً في القيام بالواجب حباً حقيقياً غير مشوب بالغايات والمقاصد الشخصية فان من يقوم بعمل لا يريده مكرهاً عليه لا يحسن القيام به وان انحطت عليه كل قوى العالم وساقته الى الأحكام سوقاً عنيفاً . ولكن من يتعلق بمهنته وعمله بجيده ويلذ له الاتقان والابداع فيما يعمل ويستحيل صرفه عن خطته او تقليل عزمه وتحويل ارادته . وهذه هي الحال في قضيتنا التي تشغل الافكار وتضني العقول

وخير علاج لتلك الحال حب الحياة على ما فيها من راحة وتعب ونعيم وشقاء ويأس وأمل وحب الناس على ما فيهم من ضعة وسؤدد ونبل وسفالة وفقر وسعة وحب الانسانية التي تقوي الرابطة بين الخلائق وتلطف آلام المنكوبين وتخفف نوعاً من الشرور المنتشرة والآلام الكثيرة التي يئن منها النوع الانساني. فاذ ذاك يشعر المرء بقوة خفية تتمكن من قلبهِ وارادته وتدفعهُ الى طريق الخير كما تدفع الريح السفينة ان تمكنت من شراعها. وسرعان ما يعرف معنى الشفقة والعدل ودفع الحيف والغبن فيقدم ما استطاع من الطيبات والاحسان وهو مسوق بارادته المحضة . وتتغلب عواطفه على ميول النفس الخبيثة ان حاولت

ردَه عن هذا السبيل المحمود وضميره يقول لا خير في الانسان ان لم يعمل خيراً ولا فائدة من وجوده ان لم يكن نصيراً للضعيف وأخاً للبائس ورفيقاً للمنكود وطبيباً للمريض ومعزّياً للحزين

وهذه القوة التي تتمكن من القلب وتحكم فيهِ أقوى من أن تقهر واكبر من أن تعرف ولكنها تستطيع البقاء في مكامن القلوب والعواطف . وكل ما في الانسان من عاطفة حية واحساس رقيق وميل الى الخير ناشئ من هذه القوة الغريبة التي تحتلّ الأفئدة والصدور . وكذلك كل ما يمتاز بهِ الرجل النابغ من الفكر والعمل الجليل يكون نتيجة هذه القوة المتسلطة على الارادة والعقل لأن الشجرة التي تورق وتثمر تستمد جذورها الحياة والقوة من خصب الأرض ويأخذ ما ظهر منها كفايته من النور والهواء وحرارة الشمس . والرجل الذي يحتفظ بنفسهِ فلا يطوّح بهـا الى المفاسد في هذا الوسط الانساني المملوء بصنوف المضار والشرور ويتبع السبيل القويم انمـا يستمد القوة والهدى من ينبوع طاهر وضمير حي شريف

وقد تظهر نتائج هذه القوة الكامنة في أشكال جمة منها قوة الارادة والحنو والعطف على أبناء الانسانية . ومنها الفكر المستنير الذي يعمل لتلطيف شرور المجتمع الانساني ويفتق عن كل وسيلة ناجعة لشفاء أمراض الهيئة الاجتماعية . ومنها الاشفاق على اللقطاء الذين تركهم امهاتهم تحت رحمة الله والانسان ومنها الرفق بالحيوان الأعجم

الذي لا يشكو ولا يعرف كيف يدفع غائلة الأذى وشرور صاحبهِ . ومنها طول الأناة في تكوين الجمعيات الخيرية لنصرة الضعيف واغاثة الملهوف . ومنها كثير غير ما ذكر من أنواع المساعي الخيرية التي يبررها العاقل ولا ينكر فضلها الخبيث الساقط

وكل عمل من هذه الأعمـال يدل على وجود هذه القوة في مكامنها الطاهرة الشريفة فتنشّط وتزع النفوس الى طريق الخير وصالح الأعمال . وكل من وهبه الله هذه النعمة يغبط نفسه عليها ولا يلذّ له الاَّ أن يقف وجوده على تخفيف أرزاء الانسانية والتلذذ بخدمة النوع البشري وهو هنيٌ سعيد بذلك لا يميل بأذنهِ الى شكر صنيعهِ ولا تأبه نفسه للفخر بعمله لأنهُ يستصغر كل مجد ظاهر ويعرف أن قيمة الحياة ومجد الانسان في قيمة العمل وفي الخير الذي يسديهِ الى البائس والمنكود

الاعتدال والمطالب

عند ما يشتري الانسان طائراً من بائع الطيور يوقفهُ البائع على كل ما يتعلق بغذاء ذلك الطائر وطرق معيشته بكلمات قليلة موجزة . والانسان نفسه لا يحتاج الى اكثر من هذه الكلمات لمعرفة حاجاته الضرورية لكونها على غاية من البساطة لا تُسئم ولا تضني ولا تتطلب

جهداً يتعب ويكرب . فمن تعداها كثرت متاعبه وزادت حيرته في الحياة واعتلت صحته واحتواه الملل والضجر وعرف الهموم ومتاعبها الجمة اذ لا شيء يحفظ صحة الانسان وقواه كالمعيشة البسيطة الخالية من كل شذوذ . ولا شيء يضنيه ويتعبه غير تناسي هذه الحقيقة والابتعاد عن السذاجة الفطرية والبساطة . ولو تساءلنا عما تتطلبهُ الحياة من الماديات ليعيش الانسان عيشة راضية لما كان الجواب الاّ الطعام المغذّي واللباس البسيط والمسكن الصحي والهواء والحركة . تلك هي الحاجات البسيطة التي تكفل للكائن الحي العافية والقوة بيد أن النفس تتوق الى غير الاعتدال في الحاجات وتشتط في المطالب الكمالية التي تنوء بها الكواهل وتطرد من العائلات السعادة والهناء . وليس على المرء الاّ أن يرسل نظرة دقيقة الى الهيئة الاجتماعية ليتحقق من ابتعاد الجميع عن روح الاعتدال الحميد

ولو خطر لأحدهم ان يسأل أفراداً من الناس عن لوازم المعيشة والحاجات الضرورية للحياة لجمع خليطاً من الأجوبة المتباينة فتتضح له رغبات الناس وأماني النفوس الطامعة متفاوتة بتفاوت المطامع ودرجات التربية والتهذيب

وكل هذه الرغبات تنحصر في مختلف الأطعمة وزخرف اللباس واختيار القصور المشيدة والحدائق الغناء فلا ترى ذلك ممكناً الاّ للسراة وكبار الاغنياء حتى اذا وصلت الى من دونهم ثروة وكسباً

استحالت مرضاة النفس فتعيش مرغمة على الكفاف ناقمة على سوء الحظ وقصر اليد عن ارضائها بما جنحت وتاقت اليهِ

وكم من الناس من انتحروا لأول اصابتهم بشيء من العسر بعد السعة ففضّلوا الموت والفناء على الاقلال بعد اليسار مع أن الحال التي لم ترضهم ربما كانت نعمة يحسدهم عليها غيرهم و يحلم بمثلها الكثيرون !

والمشاهد أن العالم صنوف مختلفة فمنهم الاغنياء وملوك المال وأولئك يعيشون عيشة البذخ والظهور تحوطهم الاتباع والخدم و يتقلبون في مساكن عدة حسب تقلب أيام السنة وفصولها. ومنهم أنواع المزارعين وذوو الأملاك وأولئك في حال من العيش لم يبلغ بذخ الاغنياء ولم يهبط الى دائرة الفقراء . و يعقبها طبقة الشعب وهي المزيج من ذوي الكفاف والصناع والعمال والفلاحين وسائر أفراد الأمة . بيئة لا يعرف العيش فيها الاّ من نشأ معتاداً ما فيها من ضيق وعسر و يصعب على أفراد الطبقات الاخرى اعتياد شظف عيشها ونكد حياتها . ومن قضى عليهِ الشقاء بالتدهور اليها لاقى من صنوف العذاب والألم ما لم يعرفهُ ولا يكون له جلد على احتماله وربما طلب الموت فراراً و يأساً

ان الناس على اختلاف الطبقات متساوون في الخلقة والتكوين لأنهم من نوع واحد وطينة واحدة لا يتفاوتون الاّ في الحاجات والتبذير في الكماليات وحب الظهور . وليس من المفيد أو الضروري لسعادة الانسان والهيئة الاجتماعية أن تتعدد المطالب وتكثر الحاجات الى درجة

تستدعي ان ينهك المرء نفسه و يستنفد قوّته وجهـده للحصول على بعضها اذا لم يتمكن من الحصول عليها جميعاً . ولو قارن كل فرد نفسه بمن هو دونه في الغنى والجاه ونظر اليهِ كيف يرضى و يسر بالضروريات ان حصل عليها لاستطاع أن يردع النفس عن غيها وقوي على كبح جماحها وأرضاها بما يرضي القنوع الراضي

والحقيقة أن الاستياء عام يشمل كل الطوائف وكل الافراد اللهمّ الاّ المعوزين الذين لا يملكون قوت اليوم أولئك الذين يتضوّرون جوعاً و يُصلوْن لفحات الشمس لأنهم لا يجدون مكاناً يتفيئون ظله و يقرسهم البرد لأنهم عراة لا يملكون لباساً ولا غطاء و يقتلهم العوز لأن يدهم خالية لا تشمل ميراثاً ولا تستثمر مورداً . واننا لنظلم أولئك البائسين ان عددناهم من الساخطين المستائين

وقد يتعب البـاحث اذا عني بمعرفة سبب سخط الناس على عيشهم وما هم فيهِ سواء في ذلك طبقة الشعب والطبقة المتوسطة أولئك الذين لديهم ما يفضل عن حاجتهم الضرورية ولا ينتفعون بما نالوا من الرزق ولا يعترفون بنعم الله وما منحهم من جزيل العطاء . فان صادفت غنياً قانعاً بما في يده فلا تتوهم كون سروره بماله وثروته فانما هو رجل يعرف كيف يقنع فيسر وكيف يسعد فيلذّ له العيش

الدابة ان شبعت تنام ملء عينيها ولكن الانسان لا يهدأ طويلاً اذا هو أثرى بل يشتد طمعه و يزيد جشعه وكلمـا كثر ماله زادت

شراهته وتعددت رغباته وأمانيه . ومن هذه الحقيقة ترى أن اكثر الناس شكوى من الحال وسخطاً على العيش هم اكثرهم سعة وأوفرهم في أسباب الاغتباط والشكر . وهذه حجة قاطعة على ان السعادة ليست في الغنى وكثرة الحاجات . واذا لم يعرف الانسان هذه الحقيقة البديهية فلا يعرف حداً لمطامع النفس ولا يوقف رغباتها المتعددة فلا يعرف معنى لهدوء القلب وطمأنينة النفس

* * *

ان الرجل الذي يعيش ليأكل ويشرب وينام ويلبس ويتنزه ويلهو بكل ما في وسعهِ من أسباب الملاهي والملاذّ هو المعتلّ أسير الشهوة وعبد النفس سواء كان هو المقعد الذي يلذ له النوم تحت حرارة الشمس أو العامل السكير أو القروي البطن أو المرأة المولعة بالزينة والتبرج أو السري الشهواني فكلهم على مزلق السقوط الأدبي وهو مزلق لو عرف الناس خطير

ومن ساء حظه وزلّت قدمه كان شأنه شأن الحجر الساقط من علٍ . وقد يعلل النفس بالوقوف عن هذا التطوّح بعد نيل أمنية مطموع فيها ولكنها تعلّة فاسدة لا تلبث أن تزول اذا نيل المطموع فيهِ فلا يقف ولا يقنع . يسوقه الطمع قسراً ولا إرادة تمنعهُ من التورط لأن الخضوع لأهواء النفس ومراميها يقضي على الارادة ويقتلها . هذا هو سرّ الارتباك المتفشي والاستياء العام وهو أقل جزاء لمن تخضع ارادته

لميوله ويستعبده الطمع والجشع فان الرغبة تفعل في قلبه فعل النار بيابس الحطب وتنخر عظامه نخر السوس الخشب وتمتص دمه فلا يذوق طعم الراحة والهناء ما دام في قيد الحياة

وليس هذا مجرد تخمين أو ظن أو رجم بالغيب وانما هو حكم وثيق بعد مشاهدات عديدة واحتكاك بأحوال الناس وتصرفاتهم . حكم تؤيده المشاهدة والواقع وهو من الحقائق التي لا ينقضها العقل ولا المكابر

أنظر الى السكير المدمن فانهُ لا يكفّ عن الشراب مهما كرع حتى لتمزق أحشاؤه ويلتهب دماغه قبل أن يروى ويكفّ . وانظر الى الوقاحة فانها لا تلطف حدة المعتدى عليه بل تزيده حنقاً وغيظاً . ان مَن يرخي لنفسه العنان ويتبع مطالبها ويجنح الى ميولها يقوي رغباتها ويعدّد مطامحها حتى لا تقنع ويكون شأنها شأن الميكروبات التي توضع في بعض السوائل لتقتل وتعدم وتكون صالحة لها فتزداد وتنمو بكثرة هائلة

وكل ظن يكون منشأه توهم السعادة في الغنى ونيل حاجات النفس وشهواتها باطل غير حق لأن من يملك الملايين يطمع في سواها ولا يقنع بما ملكت يمينه ومن تصل يده الى الآلاف تتطلع نفسه الى الملايين ويموت بحسرة الحصول عليها . والبطن الذي يحصل على الدجاجة تتوق نفسه الى الأوز ثم الى الخراف فالى الغزلان . وهكذا

تتنوع ميوله وتتجدد أماني نفسه وهو ضجر مكدّ تعب

وهنالك كثيرون من الفقراء تتوق نفوسهم الى عيش ذوي الثروة والسعة فيخرج العامل عن حدّه وقدرته ليظهر في مظهر ذوي الجاه . وتقلد الفتاة الفقيرة بنات البيوتات الكبيرة في الزّي واللباس . ويقامر الموظف في اندية الاغنياء ورجال المال فيضيق ذرعه بمقتضيات ذلك الوسط المبذر ويزيد انفاقه على كسبه فتسوء العاقبة . وكثيراً ما يغفل ذلك النفر المشتط المقلد عن أنّ ما يضيع في سبيل الظهور يفيده في شؤون اكثر نفعاً له ولذويهِ لو أحسن التصرُّف واعتدل في عيشه وانفاقه

والرجل عبد الملاهي والملذات وأسير النفس الطموحة الجشعة اكثر شبهاً بالدبّ توضع في أنفهِ حلقة حديدية فيقتاده بها الانسان ليرقص ويلعب وهو مرغم لا يملك من أمر نفسه شيئاً . وليس هذا التشبيه لمجرد التشنيع والتحقير وانما هو الحقيقة المرّة التي لابدَّ من الاعتراف بهـا . ان هذا الفريق من الناس مسوقون الى أسوإ حال ومنهم من يضحّي أعز ما يحتفظ بهِ الانسان في الحياة الدنيـا العرض والشرف لنيل ما يرضي النفس ويقضي مطالبها. وعذرهم في ذلك كثرة الحاجات والافتقار اليها وهي دعوى فاسدة لأن الكفاف سهل الادراك ولا يكلف المرء عناءً طويلاً ولا يسوقهُ الى الحضيض الدنس الملوَّث

ولا يستطيع ان ينبئك بنتيجة هذا السقوط غير اولئك النسوة

اللائي بعنَ الطهر والعفاف وارتمينَ في أحضان الرذيلة فساقتهنَّ الى أتعس المواقف وأحط منازل الحياة . ليسألهنَّ سائل عما وصلنَ اليهِ وعن أسباب هذا السقوط وعما اذا كنَّ في حال مرضية وعيش رغد وراحة وطمأنينة مع ما هنَّ عليهِ من الزينة والتبرج فيعرف مقدار الشقاء والبؤس الذي يحيط بهنَّ ويجعلهنَّ آسفات على الحياة السالفة والأيام الماضية

وفي الناس رب عائلة يعولها بما استطاع تحصيله من عمل شريف يضيق صدره وذرعه بمطالب زوجته وتقصر يده عن ارضاء رغباتها فيدفعهُ الحنو والحب الى المهاجرة الى حيث الربح الوفير والمال الكثير ليستطيع ارضاء تلك الخبيثة الطموعة . وهي تبسط يدها بالانفاق وتبعثر ما جمعهُ الزوج التعس بعرَقهِ الغزير وتعبه المضني غير شاكرة له يداً ولا معترفة له بجميل فتتولاه السآمة والملل ويتناوبهُ الضجر فينزع من قلبه الحنان والشفقة ثم يقبض يده المبسوطة ويترك تلك الشيطانة تسخط عليهِ وتلعن الزمان والطبيعة والنوع البشري وتملأ الجوّ أنيناً وعويلاً . ولو انها اعتدلت في مطالبها وراعت ظروف الحال ودخل زوجها لبقيت في رغد دائم وعملت على سعادة العائلة ولَمَا خسرت عطف رجلها وحبه الأول

ولا شك في أن مثل ذلك العائل المنغّص عيشه يجتهد ان ينسى أحزانه بضروب اللهو فيشرب الخمر ويقامر ويتغزل حتى يتورط شيئاً

فشيئاً فلا يلبث ان يبلغ سبيل الرذيلة ويركب متن الحرمات فيتهكها جهاراً وتفسد أخلاقه ويتأصل فيهِ الداء فيعز شفاؤه وتكون النتيجة سقوط العائلة وخراب الدار . وكم من العائلات التي يكون في وسعها العيش بهناء ينزل بينها الشقاء والبؤس لضياع العواطف الحية من قلب رجلها العائل ولنسيانه الواجب فلا تجد في أفرادها غير والدة أنحلها الحزن وأضناها الهمّ والتفكير وأطفال عراة حفاة يعوزهم الخبز والماء والهواء لكون ذلك الأب القاسي يبذّر كسبه في غير ما يحتاجون اليهِ من مطالب الحياة ويفقد ماله في سبيل شهوة النفس وأهوائها الكثيرة

ولو اعتدل الناس في أمورهم وأنفقوا ما يكسبون في قضاء حوائجهم الضرورية لما عرفوا الحياة من وجهها الأسود ولكانوا في غنى عن الاستياء والتذمر ولأمكنهم أن يواسوا المحتاج بما يتجاوز حاجتهم معاونة تبهج النفوس وتشرح الصدور وترضي الضمائر . ولكن الاسراف يستنزف الكثير والقليل ويترك الناس في عوز دائم فلا يشعرون بقدر النعمة ويأخذون باليمين من خزائنهم ما يبذرونهُ باليسار في شهواتهم بلا لذة ولا تنعم . وأنّى لهم أن يعرفوا طريق السعادة والهناء وهم على هذا الشطط القبيح ؟

ان الخضوع لشهوة النفس ومطالبها الجمة يودي بالسعادة والاستقلال الذاتي وحسن الخلق وينتج اعتلال الصحة وضياع الثروة ويلهي بالحاضر عن فضائل الماضي ويشغل عن التطلع الى المستقبل

ويكون سبباً لبيع الزرع ودرّ الضرع والاقتراض بفاحش الربا للتمتع برهة من الدهر وحيناً من الزمن تُرى بعده الحياة عبئاً يضني وحملاً يتعب بعد أن يجفّ مورد الثروة ويقفل باب الكسب. ثم يستفحل الدين القليلَ المرهون فيمرّ العيش وتتنغص الحياة ويكثر الهمّ والتفكير وتخلق الأمراض ويجيء الفقر فالعوز فيشتد التطلع الى ما في يد الناس فيكون هذا منشأ الخصومات والمشاكل فتسوء الحال وتتعدد الجرائم المخلّة بالأمن ونظام الاجتماع

وعلى عكس ذلك اذا اعتدل كل في حاجاته وضروريات العيش يتأتى اجتناب هذه المكدرات ويسهل اتحاد الهناء والسعادة بكل مميزاتهما الحسنة المنشودة. ولا يغربنّ عن الافكار كون القناعة من أحسن الوسائل التي تكفل الراحة والاطمئنان الى المستقبل وكون الحمية رأس الدواء. ومَن عرف ذلك وجعله محوراً لتصرفه دفع عن نفسه الأضرار التي تشقي وتحزن وحفظ صحته وعقله من الفساد لأن الاعتدال والبساطة في المأكل والملبس والمسكن من خير ما يمتاز به العاقل الحكيم وعلى قدرهما في احوال المرء تكون الثقة بمستقبله اذ يكون في أمن من الطوارىء السيئة وعواقبها الوخيمة ويكون له مما يدخّرعون على المرض والعطلة وكلاهما عارض محتمل الوقوع

ومن ألف البساطة في معيشته لا يدفعهُ اليأس الى الانتحار ان خسر ماله أو فقد مركزه لأنهُ قليل الاهتمام بظواهر الغنى والجاه فلا

يكون شأنه اذا نزل بهِ الفقر شأن الطفل المدلَّل ان حبسوا عنهُ سائر اللعب التي كان يفاخر رفاقه و يدل بها عليهم اذ ينكمش بعيداً عنهم ذليل النفس ضعيف الحول لا يقدر على رفع رأسه بين من كان يفخر عليهم و يشاكسهم

ولو لم يكن في الاعتدال والبساطة في العيش غير كف الأنظار عن الحسد ومنع الكراهية والبغضاء التي تنشأ منهُ وغير اجتناب نتائج الغيرة التي تتولد في قلوب الحاسدين والمشاكل التي يستدعيها الاسراف لكفى

وليتذكر العاقل أن للظهور ثمناً باهظاً يدفع من المال وراحة الضمير والفكر ومن الحقيقة وهو ثمن لا يستهان بهِ ولا يقوى على دفعهِ امروء بدون ان يعكّر صفو هنائه

الاعتدال والسرور

كلما ينظر الباحث الى المجتمع الانساني وأطواره الذاتيـة والى الاحوال الشخصية كلما يزداد وثوقاً باقفار القلوب من عاطفة السرور الحقيقي . وليس ذلك لرغبة الناس عن هذه العاطفة او لتقصيرهم في البحث عن أسبابهـا ووسائلها فان العالم بأجمعه انما يسعى بكل قواه ليسرّ ويفرح

ان في الناس من ينسب الاستياء العام والفتور المخدّر الى اسباب مالية او سياسية . ومنهم من يرجع الأسباب الى المشاكل الاجتماعية والخصومة الدائمة بين الخلائق . والحقيقة أن الباحث ليحار في اسناد ذلك الى سبب واحد لتعدُّد الأسباب ووفرتها . وان المرء ليرى كل من يصادفهم في شغل دائم وتعب يرزحون تحت اعباء من الهمّ والنكد إما لشقاق في السياسة واما للمشاكل القضائية القائمة بين الناس واما للغيرة التي تحرق الصدور وتأكل القلوب واما للحسد المتبادل بين ذوي المهنة او الصناعة الواحدة واما للتنافس بين ذوي اليسار والمراكز السامية واما للمزاحمة في التجارة

ولا يفوت الباحث أن التعليم ولوائحه الكثيرة الصارمة من اكبر الأسباب التي تشغل أفكار الشبيبة وتنغّص عليها العيش كما ان الصناع والعمال في همّ متزايد بسبب الخلاف الدائم بينهم وبين أصحاب المصانع والأعمال

فالحياة لا تلذّ للحاكم لضياع النفوذ وقيام الأمة بكسر قيود الإرهاق وطلب التخلص من السلطة المطلقة . والمعلم ساخط لقلة اكتراث الناس بالعلم ومعرفة أقدار المربين والمهذبين . وهكذا بقية الناس لا ترى فيهم الاّ المغضب المستاء مع أن التاريخ يرينا عصوراً كثيرة تنقصها مزايا العصر الحاضر من معدات الرفاهية والتنعم واسباب السرور والراحة ويرينا ما كان عليه الانسان في تلك الأزمان

من سعادة العيش وصفاء البال والاغتباط بهما رغماً من الحوادث الخطيرة الجمة التي تذهب بلذة الحياة

ويظهر أن سوء الحظ والشقاء وعدم الاعتداد بالمستقبل وتتابع الأزمات هي من الأسباب الموحّدة للقوى الدافعة الى التضافر لمقاومة الكوارث الطارئة والمصائب العامة التي تصيب الناس بالضر والأذى

وقد مرَّ على الانسان حين من الدهر لم تخلُ لحظاته من همّ جديد وشقاء داهم غير أن ما اعتور راحته وعيشه من الطوارئ المتعبة والنوازل العائقة لم يسلبه الهناء والسعادة بل كانت تلك الفترات خير الأزمان التي عرف فيها الفرح والاغتباط . وهذا عجيب بعيد عن التصديق ولكنه الواقع . ويرجع السبب في ذلك الى سلامة الضمير من أدران الخبث وتنزّه النفس عن كثير من الطباع المرذولة كالحسد والغيرة والطمع الى غير ذلك

وليس السرور من الماديات بل هو شعور ينبعث من النفس ويشعر بهِ القلب . وقد تبدو ظواهره على الوجه في شكل ابتهاج او ترتسم أماراته على الثغر في زي ابتسامة . ولهذا يرجح كون بواعث الانقباض والاستياء التي يشعر بها الانسان في هذا العصر نفسية ايضاً ولو أنَّ منشأها المؤثرات الخارجية

ومن مقتضيات السرور الحقيقي الأمن والاطمئنان الى الحياة والثقة بالنفس وهي ما ينقص الناس . إن الرجال بل والشبان يضنيهم

التفكر في أمر الحياة وان لم يكونوا من الفلاسفة وكيف يطرق السرور هذه القلوب ما دامت الافكار مشتتة تعبة تود لو أن العالم لم يخلق والوجود لم يكن ؟

ان الافراط قد أودى بقوى الانسان الحيوية فأصابها الانحطاط والوهن وفسدت الحواس وضعفت المشاعر حتى قضي على جميع أسباب السرور لكون الطبيعة لا تحتمل كل المفاسد التي يرتكبها المرء ويقتل بها النفس والعواطف . ولكن رغبة الانسان في الحياة ومتاعها لم تزل حاكمة متحكمة في نفسهِ تصرفها الى التفتيش عن بواعث السرور أنّى وجد ولو كان باطلاً ووهمياً

وكما ان الطبيب يلتجئ عند الضرورة الى الوسائل الصناعية في التنفس والتغذية وغيرهما متى كان المريض في حاجة الى مثل ذلك فكذلك ترى الناس يعنون بايقاظ السرور من مرقده وبعثه من قبره فيضطرهم ذلك الى استنباط الوسائل الآتية بهِ والمؤدية اليهِ بغير أن تردعهم النفقات الطائلة والعوائق الجمة . ولكنهم مع ما كلفوا أنفسهم من المصاعب وصنعوه من الممكن والمحال وما أعدوه من المعدّات لم يذوقوا قطرة واحدة من السرور الحقيقي

وهنالك فرق واضح بين السرور ومعداته فكما انهُ لا يكفي الحصول على القلم ليكون الانسان كاتباً ولا تأبط المزمار ليكون موسيقياً بارعاً فكذلك لا يكفيهِ ان يهيء كل معدات السرور ليكون مسروراً .

والمشاهد ان الكاتب المقتدر يكتفي بقصبة لا قيمة لها ليكتب ما يخلد الذكر ويعطّر الاسم وأن المصوّر الماهر يرسم بقطعة من الفحم ما يعدّ من المعجزات ويبقى من آيات الفن و بدع الدهر . فالعبرة اذن بالخبرة والموهبة وعليهما المعوّل . ومن عرف كيف يسرّ ويهنأ لا تكلفهُ السعادة نفقة ولا جهداً . ولكن هذه الموهبة لا تتفق مع السفسطة والغرور والافراط ومن لوازمها الثقة بالنفس والاعتدال في الفكر والعمل. فحيث تجد الاعتدال ترى السرور الحقيقي وتشعر بالسعادة الصالحة كما انك حيث تجد الزهر العطر تشتم عبيره المنعش . وكثيراً ما ترى الزهرة تنبت بين حجرين او تخرج في شق جدار متهدم او في جانب صخرة ملساء فتعجب وتدهش وتتساءل كيف نبتت وكيف أزهرت وكيف صارت يانعة عاطرة مع انها لا توجد بهذا المنظر البهيج في حديقة غناء تسقى وتخدم بل كثيراً ما ذبلت بين يدي المعجب بها وذوت أمام ناظريه وهو عاجز عن دفع ما حاق بها

سائلوا الممثلين ورجال المراسح عن اكثر الناس سروراً وابتهاجاً بالتمثيل الهزلي يدلوكم على الجمهور الساذج وهم محقون في ذلك لأن هذا الصنف من الناس لم يختلف كثيراً الى المراسح بل لا يقصدها الاّ نادراً فيرى الأشياء في بهجة الجديد وروائه ويسمع الكلام كأنه غريب عن آذانه التي لم تعتد الهزل ولم تعرفه فيجد لذة بعد جهد النهار وتعب الاسبوع . وهذه اللذة حقيقة بذلك النفر لأنهم لم

يذوقوها الآ بعد طويل الحرمان وهم أعرف الناس بقيمتها كما يعرف العامل الكادح قيمة الدرهم الحقير بعد طويل الكد والتعب . وزد على ذلك ان العامل الساذج يتأثر مما يشاهد تأثراً حقيقياً كأنهُ حوادث واقعة غير شاكٍّ ولا مرتاب فيلهو بما يرى و يسرّ سروراً حقيقياً لا يعرفهُ من يقضي حياته على المراسح و يعرف حقيقة التمثيل

فمما يدعو للأسف أن البساطة سرّ السعادة وروحها أخذت تزول حتى من الوسط الساذج . و بعد أن كنا نندب حظ سكان المدن الذين اطّرحوا وراء ظهورهم العادات والتقاليد الممدوحة أخذنا ننظر بحزن واستياء الى حال القرويين الذين اقتفوا خطوات المتحضرين في تلك المزالق الخطرة فانكبوا على الكُحول واعتادوا المقامرة وألفوا قراءة ما يفسد الأخلاق ويحرّك العوامل الكامنة فيطوّح بالمرء الى بؤرة الفساد والرذيلة

زالت البساطة من ذلك الوسط بعد أن كانت هي دعامة الهناء والسعادة حيناً من الدهر فأخذت الحياة الملفقة مكانها وأفسدت كل صالح وقضت على كل حسن . وان من يقارن بين الأعياد والأفراح التي كانت تقام في القرى و بين أمثالها اليوم لتذوب نفسه حسرة وحزناً على ما فات

أين ذلك الزمن الذي كان الناس فيهِ اخواناً يشمل عرس أحدهم كل ابناء الضيعة فيجمعهم سامر واحد وتربطهم عاطفة واحدة

يستجلونهـا في غنائهم وصياحهم ورقصهم وتصفيقهم بعـد أن يملأوا بطونهم طعاماً مغذياً وماء قراحاً ؟

إن السرور والسعادة من المسائل الرئيسية في الحياة الدنيا ولكن بعض العقلاء ذوي الرزانة يهملونها كأنها لا تستحق الاهتمام والذكر . وينفر منهـا المتمولون ذوو المطامع المادية الذين حصروا حياتهم في الكسب والادّخار لتوهمهم انها مما يستدعي كثرة الانفاق والتبذير. أما من نعرّفهم في المجتمع بالشهوانيين فانهم يبحثون عنها في غير مكانها كما يبحث الخنزير عن الاقذار في الحديقة الفيحاء

وعجيب أن لا يحفل الناس بأمر السرور الحقيقي مع شدة احتياج النفس اليهِ . السرور شعور يزكي العواطف فيحييها وينشطها ويجعل للحيـاة في نظرها صورة حسناء تفتن . ومن يعرف كيف يسرّ ويهنأ في هذا الزمن المملوء بالأفكار العقيمة والمتاعب النفسية يكون ممن لهم ميزة وتفوّق غريب . ولو عني هذا البعض ببث أفكارهم بين الناس لارشادهم الى طريق السعادة لرفعوا عن القلوب ما يثقلها وعن الوجوه المقطبة مسحة الكآبة والكدر الدائم ولأنعشوا الأفئدة بعد أن طال عليها الخمول والجمود ولجعلوا للحيـاة وجهاً غير هذا الوجه الاسود . ولكن كيف يتسنى ذلك بعـد ان أقفرت القلوب من الرأفة والحنوّ وقصرت الأفكار عن معرفة الأسباب الوجيهة للعزاء والسلوى حتى أن من يريد أن يخفف عن يائس وقر الشقاء ونكد العيش مجـاملة

ينكر عليهِ آلامه و يناقشه في ذلك ليوهمه أنهُ على خطاء في معرفة مركزه الحقيقي وتقدير سوء حظه في الحياة ! !

ليس من يقتنع ويعرف آلام الغير وتأثيرها في النفس الاَّ من يعاني مثلها ويئن من وقرها . ولهذا ترى المنكودين يتفاهمون ويرثون بعضهم لبعض حتى اذا ما صلحت حال أحدهم وابتدأ نجمه ينتقل من برجه المنحوس نسي ما كان يقاسيهِ وأنكر على غيره ما هو فيهِ من نكد وشقاء مع أن المعزّي اللطيف هو من يشعر بآلام المنكود شعوراً حقيقياً ويرثي له رثاءً صادراً عن القلب . ورب ضغطة على اليد تزيح عن قلب المتعس حملاً من همومه وتخفف عنهُ شيئاً من بلواه متى أحسّ انها عن ودّ واخلاص . وربّ نظرة واحدة تفضل آلافاً من العبارات المنمقة المزخرفة

من الناس مَن يستصحب البائس ثم يجهد نفسه ليدهشه بمقدرته في الكلام والنكات ويفتح له مصراعي بابه ويدعوه على الرحب الى مائدتهِ ويعدّ لهُ من الطعام أشهاه وأفخره مختالاً بما رزقهُ الله وحُرم منهُ الكثيرون . وربما تصدَّق عليهِ وهو يظن أن في ذلك عزاء وتلطيفاً لحال اليائس الشقي ولكنهُ عين الخطاء والغرور . فأي عزاء لمن يفاخره الانسان بمقدرته ويكاثره بفضته وذهبه ويجسّم له حقيقة أمره أمام خدمه وحشمه ويوقظ الحسد في نفسهِ بما منح من مال وجاه ثم يحقره بما يعطيهِ صدقة من فضلات نعمه ؟ وهل أصعب على النفس

من أن ترى يسر الغير وعسرها وجاههم ومسكنتها وقوتهم وضعفها ؟

إن من يريد أن يأخذ بيد البائس ويزيح عنهُ شيئاً من همومهِ يجب أن ينكر نفسه اولاً لأن الأنانية تنفّر منهُ القلوب مهما كرم أصله ورق قلبه وابتغى صالحاً وعملاً طيباً . على ان هذه التضحية ليست الاَّ مظهراً فان المرء لا يتجرد من خاصة ميل النفس الى ذاتها والمراد بهذا التقييد كسب ثقة المنكود وفتح اذنيهِ لسماع كلمات العزاء والتشجيع فيشعر بتأثر قلوب الغير لمصابهِ فيتقبل الاعراب عن عواطفها ويقع منهُ موقعاً ينسي الهموم ويبعث الى الطمأنينة

واذا كان الانسان يتناسى في أوقات السرور كل متاعبه الشخصية وهمومه التي تشقيه وتشغله فأولى بهِ أن ينسى في ساعة العزاء والمواساة مركزه الاجتماعي وجاهه وحوله ويتجرد من كل القيود التي تكمّ الأفواه وتحول بين الانسان وفطرة الصبي الساذج ليضحك ضحك الأطفال وهم أقل الناس ادراكاً للهموم واكثرهم سروراً وسعادة . ألا ان هذا التناسي ليفيد كثيراً ويصلح حال الاجتماع ويزيل ما بين النفوس والقلوب من الموانع والحواجز ويكون واسطة قوية لتبادل الحبّ والنفع

* * *

من الظن الشائع أن الممرّض لا ينفع لغير التمريض والمدرس لغير التعليم والقس لغير الوعظ وبقية مقتضيات عمله الديني . فتكون النتيجة ان كل المتفرغين للأعمال الجدّية مكرسون لهذه الأعمال

لا يتزحزحون عنها قيد أصبع كأن شأنهم في العمل شأن الدابّة فيما خصص لها من العمل . وعلى هذا الزعم يكون العجزة والمفلسون وكل المنكوبين على سائر انواعهم واختلاف مصائبهم من المحكوم عليهم بالتجرّد من عاطفة السرور كأنهم خلقوا للضرّاء والهموم فلا يقابلون بغير الوجوه المقطبة ولا يسمعون غير الاخبار المحزنة المكدّرة وكما ان ذلك الظن يستدعي بطبيعة الحال أن يمسخ الزائر وجهه ان عاد مريضاً او منكوباً وأن يختلق من الأحاديث ما يضيق الصدور و يسئم الأسماع والنفوس وان لا يدنو من تعس الاّ ليردد على سمعهِ اخبار البؤس والشقاء ولا من مريض الاّ ليزفّ اليهِ شتاتاً من أحاديث الأمراض والعاهات والآلام والموت . ألا إن هذا هو منتهى البربرية والتوحش وأخلق بالعقول ان تتجرد من مثل هذه الظنون السخيفة

فاذا ما لقي الانسان رجالاً او نسوة كرسوا أنفسهم للأعمال الشاقة او انقطعوا للتمريض والتعليل فليتذكر انهم من الآدميين يعوزهم ما يعوز سائر الاحياء من الراحة ونسيان الهموم والفرح وأن السرور لا يرد أولئك التعساء عن مهنتهم المحزنة وانما يجدد قواهم وينشطها لممارسة العمل بهمة وصبر

واذا ما صادفتَ عائلة حطّ عليها الشقاء بهمومه واحزانه فلا تفرّ منها فرار الجبان من الموت ولا تحذر من مقاربتها حذر من يتخطى النطاق الصحي المضروب على الموبوئين فان الانسانية تحتم على

الانسان مقابلتهم بثغر باسم وصدر منشرح مع احترام عاطفة الحزن التي بسطت اجنحتها على ذلك المكان وأفراده حتى يشعر التعساء بحنان القلوب وعطفها عليهم فيتجدد فيهم الأمل ويتعلقون باهداب الحياة فينشطوا لتحسين حالهم فيتحسن شطر من الهيئة الاجتماعية

ان العالم مملوء بالتعساء الذين قضى عليهم نكد الطالع بالشقاء وأولئك يكفيهم وميض من السرور في سماء حياتهم المتلبدة بغيوم الهمّ وسحب الأحزان وتقنعهم عطفة قلب حساس وابتسامة ثغر باسم . فمن السهل مواساة هذا النفر لو أتيح للناس أن يتعرفوهم او يتفكروا فيهم

لقد آن ان تماط عن العيون العوينات التي تمنعها رؤية متاعب هذا الفريق المنكود فتسهل مساعدة من هم في حاجة الى العزاء والمواساة ويتأتى تعهدهم بشيء من العناية التي تخفف عنهم وقر الهموم واعباء العمل الشاق وتعيد لهم شيئاً من الابتهاج . ان من يسير بجانب ذي الحمل الثقيل لتأخذه عليه الشفقة فيحمله عنه ولو لحظة قصيرة مجاملةً واشفاقاً فتعيد تلك اللحظة من الراحة الى المتعوب قوته وتشرح صدره . فهل بين الناس من ينكر هذا العمل الانساني ؟

ما أسعد حال المجتمع الانساني اذا تبودلت فيهِ المعاونة وعواطف الاخاء والمحبة فان في ذلك العزاء والسرور بل والسعادة الحقيقية التي ننشدها من غير سبيلها القويم

* * *

ولما كانت العناية بالناشئة واجبة فعلى القائمين بالتربية أن يلاحظوا ان التروض والسرور من أكبر الوسائل التي تساعد على التكمل والتأدُّب

ورب معترض يقول أن الشبان لا يعرفون الاعتدال او الاكتفاء بوسائل السرور التي يسمح بها لمن في سنّ الشباب وأنهم ليطفرون الى ما لا يستحب ولا يمدح . فيدفع الاعتراض بأن ذلك يكون بحسب قدرة المربي فان عرف كيف يسوس من هم في حرزه وصيانته بما يختلقهُ من أسباب السرور و بواعثه بغير أن يقيدهم بحدّ محدود أمكنهُ ان يشفي النفس من تطلعها الى غير الجائز وان لم يفعل عن تقصير او اهمال او عن عجز فعليهِ وحده التبعة واللوم

ان من يتصوَّر ان الناشئة تميل الى الملاهي الموضوعة و بواعث السرور المختلق لهو على خطأ لأن النفوس لم تفسد بعدُ . ولا زالت تميل الى المروّحات الطبيعية البسيطة وتشعر بتأثيرهـا على النفس الساذجة فتنشط وتنتعش بينما هي تسأم تلك المشوقات المملة المتعبة . الاَّ إن الافراط قد أفسد كل شيء على وجه الأرض حتى أن اليـد لتكاد لا تمسّ شيئاً صالحاً والعين لا تقع الاَّ على الموبوء الدرن . فعلى قدر هذا الفساد تجب العناية والحذر عند انتقاء أساليب التروح وأماكن التلهي والسرور

ومن المحقق ان حرمان الناشئين من عاطفة السرور يؤلم قلوبهم ويقبض صدورهم ولكن ترك الحبل على الغارب يؤذي أيضاً ويقضي على الأخلاق والأدب. فالموقف حرج والضرورة ماسة للتفكر في الحال والمآل. ولو وقفنا بهم عند هذا الموقف من الارتباك لحملناهم من الصغر أتعاب الحياة وهمومها وجعلناهم فى شك ووسواس وأريناهم العالم من وجهٍ المغبَّر

فليعتنِ الحكماء بوسائل السرور ليفتحوا للسعادة باباً تأتي منهُ فتنزع الهموم واليأس وتبدّل الحال من حسن لخيرٍ منهُ . وليعمل العقلاء لإزالة الفارق الموجود بين المعلمين والمتعلمين وللقضاء على الغطرسة التي تنفّر الناشئة من المربين ليكونوا اخوة في أوقات الفراغ ترشف نفوسهم كأساً واحدة هي كأس السرور الشامل. فان ذلك مما يطرد النفرة وسوء الظن ويقوي الرابطة ويساعد على الدرس والتعليم. وان للمعلم المحبوب منزلة في قلوب تلاميذه تفتح لمعلوماته صدورهم وافهامهم . وليس ألذ للمتعلم من فهم نصائح وتعاليم مربيهِ المحبوب والعمل بها

* * *

ليس للسرور ثمن ولا هو مما يباع ويشترى وانما هو ثمرة يجتنيها من يعرف مكانها . فمن شاء أن لا يعرف الهمّ والأحزان وان يروّح عن نفسهِ ويملأ قلبه سروراً وابتهاجاً فعليهِ بالعمل والاعتدال في العيش

والمعاملة ونبذ ما ينفر منهُ الغير . وليكن حسن اللقيا واللفظ أنيساً معتدلاً حسن الظن بالناس لاحسوداً ولاحقوداً محباً لرفاقه غير مهذار ولا نمام

المال والاعتدال

المال من وسائل التعامل ولكن الضرورة اليــه لا تجيز ان يحله الانسان في غير موضعه من مراتب الاعتبار او ينظر اليهِ بأرقى من العين التي تمثله واسطة لتبادل المنافع

والمشاكل والمشاغب التي تنجم عنــهُ خطيرة وسبب لأكثر الاضطرابات في العلائق الاجتماعية الا انه مع هذا لا يمكن الاستغناء عنهُ . وعناية الخلائق بأمره من أقوى العوامل التي بعثت النفوس والافكار على حب الاقتصــاد والبحث عن سبله المؤدية الى الغاية فرفعت من قيمته الوهمية وخلقت له في الحياة قدراً وسلطاناً

ولولا الافتقار الى تبادل المنافع لما نشأت الحاجة الى المال . وليس المراد بهِ الفضة والذهب فقط بل كل متداول ذا قيمة متفق عليها معترف بهــا . وقد جعلت المطامع والرغبة في الربح والاكتناز في مستوى المنافع أشياء ليست منها ولا يجوز ان يكون لها هذا الاعتبار فاوجدت لها قيمة مالية ليست لها ولا يصح ان تقدّر بها . وفسد

بذلك المعنى الصحيح لتبادل المنافع وأصبح الحصول على المال بهذه الواسطة غشاً وسرقة واغتصاباً

من المعلوم ان الغلال والمأكولات والملبوسات وما شاكل هذه المنافع مما يسوغ الاتجار بهِ واستبدال أحد أنواعها بالآخر منهـا . وكذلك يصح ان يقدر العمل او المجهودات الشخصية تقديراً لا غبن فيه على المتعاملين . فيستوفي العامل منفعة توازي ما عاد على الآخر من فائدة عمله الاّ انهُ يجوز ان يكون في هذا النوع من التبادل شيء من عدم التماثل فان المجهودات الشخصية ليست ذات قيمة ذاتيـة وان كانت تقدر تقديراً يلوح انهُ لا غبن فيهِ على المتعاقدين

ويجب ان يلاحظ ان في الحياة ما لا يمكن بيعه كمعرفة المستقبل وما شاكل ذلك فكل من يعدّها سلعاً تباع وتشرى يكون مجنوناً او محتالاً . ولكن البعض ويا للأسف يحصل على المال بهذه الواسطة غير المشروعة . والمخدوعون يدفعون مقابل ما لا يباع ولا يملكه البائع ولا قيمة له ثمناً من الذهب . والبعض يتاجر بالعواطف والملاذ والشهوات والاعراض والوطنية والدين . وهذا النوع من الاتجار لا يجعل لصاحبه حظاً من القيمة الادبية والشرف اللذين يكونان لمن ينتفع ويربح من بيع وشراء ما يجوز الاتجار به

ومع انهُ لا يوجد بين الناس مَن لا يستنكر هذا العمل الشائن ويستقبح الربح من هذا السبيل نرى ان هذا المستقبح عقلاً وأدباً له

حكم الجائز المحمود في عرف ذوي المطامع عباد المال بل وتراهم يعدّون كل اعتراض على هذه الرذيلة بلاهةً وحمقاً وتطفلاً

وقد انتشر هذا المبدأ الفاسد حتى صار عادة لا تستأصل ولم يعد الكثيرون ينظرون اليهِ بعين الازدراء والمقت الجديرين بهِ فعبثت يد الانسان بكل مقدّس وشريف بلا تردد ولا أسف . وليس المال هو سبب هذه السفالات التي تربك الحياة الاجتماعية وتشوّه وجهها الحسن وانما هي المطامع وحب الذات

للطموع مبدآن الأول يحصر في اعتبار المال روح الحياة والثاني في ان الربح وحده هو الغرض من كل عمل ولذلك تراه يتساءل عند كل حركة : ماذا أربح وماذا عساني استفيد ؟ وهذان المبدآن هما من أشدّ المزالق انحداراً الى حضيض السفالة والعار بما ليس في استطاعة الكاتب أن يمثله ولا العقل أن يتخيله

« ماذا أربح وماذا عساني استفيد ؟ » هذا السؤال الذي يكون مبرراً ووجيها ومغتفراً عندما يراد به مجرد التبصر والاحتياط المفروضين على كل طالب رزق يكون شؤماً ومصاباً على الاجتماع عند ما يتجاوز ذينك الغرضين ليكون محوراً تدور حوله الأغراض والأعمال ووجهةً ترمي اليها الأماني والآمال حتى انهُ ليحط من قدر العامل وقيمة العمل الشريف ولو انهُ لكسب الرزق ودفع العوز

العمل المأجور مباح لكل الناس الا انهُ اذا كانت الغاية منه

مجرد كسب الأجر فانهُ سفالة لا تبرر . وكل عامل هذا شأنهُ لا يحسن العمل ولو استطاع أن يوفر من مجهوداتهِ بغير أن يقلل من أجره الذي يتناوله لفعل غير متردد ولو أضرَّ ذلك بالآخرين . وكل من لا يعمل وفقاً لمقتضيات الصناعة او المهنة فانهُ لبئس عامل يعمل او أجير يُؤاجر.

والطبيب الذي لا يحفل بغير مايتقاضاه من المرضى لايجمل بالناس الاعتماد عليهِ فانهُ لا يعنى الاّ بالمـــال لاشباع مطامعه . وكذلك المعلم الذي يرغب فيما يحصله من المتعلمين تراه يستدرّ المال ولا يوفيهم حقهم من العلم والتربية . واخطر من هذين على الاجتماع وأضرّ بمصالحه الصحافي الذي يؤجر قلمه رغبة في الدرهم الحقير فان ما يكتبه وينشره ليكون أحقر من الدرهم بل واكثر سفالة من نفس الكاتب

ومما يؤسف له انهُ كلما كان العمل يرمي الى تحقيق غايات أسمى وأغراض اكثر نبلاً ووجاهة كلمـــا اشتدت عوامل الطمع وتقوَّت الفكرة التجارية للتغلب على هذه المرامي الوجيهة وافساد نفوس العمال . نعم انهُ من الصواب والعدل ان يكون لكل عمل أجر ولكل تعب جزاء الا انهُ من الخطاء الضار بالمجتمع ان يكون الربح هو الباعث الوحيد على العمل والغاية المقصودة منهُ . وحقيق بالعامل ان يرضي نفسه بالاجادة في عمله قبل ان يشبع مطامعه بما شاءت من الأجر فان ما يبذله من الجهد لهذه الغاية سواء كان مجهوداً جسدياً او عقلياً مما لا يقدَّر بثمن او يدخل في اعتبار محصور

ان الانسان ليستأجر عاملين في قوة متماثلة ومعرفة متشابهة فيعملان ويجيد أحدهما ولا يحسن الآخر . وهذا لا يدل على تفاوت في القوة والالمام بالعمل وانما يكون على الأرجح دليلاً على ان الاول يعمل راغباً في الاجادة والثاني في الأجر فقط . وليس هنالك غير هذا السر في كل ما نراه من نجاح البعض وحبوط البعض الآخر اذا ما تماثلت الظواهر وتوازنت القوى والمدارك العاملة

* * *

ليس من ينكر ان مشاكل الحياة ومطالبها عديدة وان حاجة الانسان الى الاقتصاد ماسة وانه مرغم على ابتكار أساليب النظام في العمل للكسب والتوفير حتى يتسنى له حفظ مركزه الاجتماعي وكسب قوت عائلته وأطفاله . وان من لا يراعي هذه الظروف المتجددة ولا يحفل بالطوارئ فيعدّ لها العدة قبل ان تفاجئهُ

وأن من لا يحسب للدهر تقلباته ليس الا قليل التبصرة . ويجوز ان تفاجئه ظروف تلجئهُ الى التسوّل ممن كان يعيب عليهم الحرص والتدبر والشح

ليس من ينكر كل ذلك ولكن الى اي حال يصل المرء وعند اي حدّ يقف اذا هو حصر افكاره في أمثال هذه المخوفات ؟ وماذا يعمل او يتم من العمل اذا قصر همه على ان يقارن بين العمل والأجر الذي يريده لنفسه او اذا أصرّ على ان كل ما لا يأتي بفائدة مادية

يكون تعباً ضائعاً على غير طائل ؟

ألا ان الوالدات لا يتقاضينَ أجراً على ارضاع وتربيــة ومحبة اولادهنَّ . ويرى الابناء من واجبات البنوَّة احترام ومحبة ومساعدة الوالدين . والرجل الشريف لا يزال يعلن الحقيقة ولو انهُ لا يجني من ذلك غير كره الناس له ونفورهم منهُ واضطهادهم اياه . والناس تدافع عن الاوطان وما وراء ذلك غير التعب والجراح وربما الموت ايضاً . وفاعل الخير يسديه الى الغير بدون ان ينظر الى ما يكون من نكران الفضل وحسد البعض له وحقدهم عليه . كل هذا يتمّ بدون أجر و بدون تطلع الى ربح مادّي . والاخلاص وحده هو سرّ هذه الاعمال الجليلة . ورقة الشعور هي التي تبعث على انفعال النفس وتأثر العواطف وتدفع الانسان الى ما يحمد عليهِ من الواجبات الانسانية

أمكتنزَ المال : حوّل بصرك عن شعاعهِ الوهاج فانهُ يبهره فيزيغهُ عن الحقائق . وتأمل في كيف جمعت ما استغواك وأبعدك عن جادة الاعتدال تجد أن معظم ما وصل الى يدك لم يكن ليصل اليها لولا سذاجة الاخرين او اخلاصهم لك . ولو كان كل من صادفت في حياتك من الماكرين ذوي الخبث والأنانية لما كنت في مركزك الحاضر ولا جمعت هذا القدر مما كان للغير وتسرَّب من يدهم اليك . ان جلال العالم ليس بأمثالك بل بأولئك الذين لا تحفل بهم ولا تلوح قيمتهم الحقيقية واضحة للعيان . وان الخدمات التي يؤدونها للاجتماع ليعجز

عنها من تجرّدت نفوسهم من مشاعر الانسانية حتى انهم ليجودون أحياناً بأموالهم وراحتهم وحياتهم لنفع الهيئة الاجتماعيـة بينما أنت تحاسبهم على ما تربح وتحصي عليهم ما يعملون وما يأخذون . انهم ليعملون كثيراً لمعاونة مثلك مدفوعين بعوامل الرأفة والاشفاق والطيبة والانسانية وكثيراً ما يكون جزاؤهم على ذلك نكران الفضل والمسبة والتحقير فلا يقابلون هـذا الجحود بما يستحقهُ بل يلوم أنفسهم على خير أسدوه الى غير أهله ومعروف زرعوه في غير مكانه وانهم لعلى حق في ذلك فان اللآلىء لا تطرح في القاذورات . ولولا ان مصلحة الهيئة الاجتماعية قائمة بوجود هذا النوع من الناس وتعدّد هذا الخطاء المفيد رحمة بالخلائق لأقفلت القلوب من الرأفة والانسانيـة مما يعزّي البائس ويلطف آلام المنكوب

* * *

المال روح الحياة ! هذا هو المبدأ الفاسد الذي تشبّعت بهِ النفوس والأفكار وكان سبباً لمـا نسمعهُ متناقلاً على مثال الحِكم من قولهم : القوة للمال . هو البرهان القاطع واللسان الناطق . . هو مفتاح الآمال وحلاَّل المعضلات . هو سلطان العالم — وأمثال ذلك مما نُظم وقيل مدحاً في المال ورفعاً لشأنه

المال يلوح انه روح الحياة لمن يصيبهُ الافلاس التام يوماً أو اكثر ويكون في بيئة لم يعرفها ومكان لم يطرقهُ بعيداً عن ذوي صداقتهِ

وقرباه . وان ما يقاسيهِ من نكد العيش وآلام الحياة وما يمرّ عليهِ من التجاريب في هذا الزمن القصير ليمكنهُ من معرفة ودرس فلسفة الفقر والفقراء درساً لا يتسنى له على أحسن مدرس حكيم

ومما يؤسف له أن هذا الدرس المفيد قد يتسنى للبعض مكرهين على تلقيهِ في مدرسة الشقاء وقد يطول أمده عليهم وهم مع ذلك في أوطانهم و بين ذويهم وأصدقائهم ورفقاء حياتهم بل و بين من سبق ان أفاضوا عليهم مما كان لهم من نعم الله وغمروهم بالأفضال والحسنات . ولكن هذا لا يمنع ان يكون الدرس أكثر افادة والتجربة أبلغ عظة وعبرة فان العوز يذهب بالصداقة ولحمة القرابة وعهود الصبا وذكرى المنة والمعروف حتى لينكر الناس معرفة المفلس ويفرّون منهُ فرارهم من الموبوء

ان الذباب ليتهافت على الجيف المنتنة وكذلك الناس يترامون على المال فاذا ما ذهب انفضَّ المترامون وتوارى المتحبّبون . ومن يصل بهِ الشقاء والبؤس الى هذا الحدّ من مواقف الحياة لهو وحده من يستطيع أن يعرف قدر المال و يسخط على المبدإ السالف و يقدّر كثرة اضراره بالهيئة الاجتماعية ولو أنهُ كان في زمان سعوده من أنصاره ومن عباد العجل الذهبي

هذا المبدأ فاسد بكل معنى الكلمة وليس أيسر على العقل من اثبات فساده بأدلة ليس منها ما جاء في القصص من ذكر الضال في

الصحراء ولا تمثيل الغني الكانز في ضعف الشيخوخة وانحلال الكبر وانما بأدلة تجعل الحقيقة واضحة ملموسة وتظهر بطلان هذه الأكذوبة التي جرت مجرى الحكم والنظريات البديهة

ليس أقرب الى التذكر من حال الانسان في دور البداوة وقبل تطرق هذا الخبث الى الافكار والقلوب فانهُ كان أسعد حالاً منهُ بعد كثرة المال وتوفر الحاجات المادية ووصول العمران والمدنية الى هذا الحد المبهج . وقلَّ أن صادف المعوز في ذلك العصر الهمجي ما يلاقيهِ اليوم من أخيهِ المتمدين من دلائل القسوة واقفار القلوب من الرحمة وقبض الأيدي عن الجود بدون أن يمنع الكرم في ذلك العهد تقدّم الاجتماع أو يخلّ بنظام العالم وبدون أن يكون الشحّ وحب المال في هذا العصر واسطة للأثراء والحصول على السعادة أو من عوامل الرقيّ الحقيقي وأسباب السلام

وما على المرء إلا أن يقارن بين حال القرى والضياع التي يؤمها السائحون لشهرة لها تاريخية أو صحية يوم كانت ملجأ للضيفان ودليلاً على وجود العاطفة الانسانية في الانسان وبينها اليوم وقد انقلب الحال وأفسد حب المال تلك النفوس الساذجة والأفكار البسيطة فحوّلها الى نفوس وأفكار لصوص يترقبون مرور السائح أو الزائر ليسلبوه المال في مقابل ما لا يساوي شيئاً . انهم يبيعون اليوم ما كانوا يفخرون بالجود بهِ وما لا يملكون أيضاً . انهم يبيعون الظلّ والشمس والماء والهواء

ويطلبون الأجر حتى على الإرشاد للسبيل

يقال ان المال هو واسطة النصر في الحروب . نعم ان الحروب تقتضي النفقات الطائلة ولكن هل يكفي أن يبذل المال للدفاع عن الوطن وحفظ كرامته ؟ ان لنا من التاريخ خير جواب على هذا السؤال فان ما كان بين جيوش الفرس ونفر اليونان وانتصار الذابين عن بلادهم المستقتلين في الذود عن حياضهـا يناقض هذا القول ويدل على بطلانه

نعم ان المال يكون واسطة للاكثار من المدافع والبنادق والسيوف والرماح والقذائف والعمارات البحرية والخيول ولكنهُ لا يمكن أن يكون ثمناً للمعارف الفنية والفنون الحربية والسياسات الرشيدة والنظام الدقيق والطاعة والحماسة والوطنية . والنصر في الحقيقة راجع الى هذه الأسباب وتوفرها في المقاتلين

قد يتوهم البعض أن المال وحده يخفف متاعب الهيئة الاجتماعية ويلطف ما فيها من أنواع الشقاء والحقيقة أن المال من بواعث التطرف والافراط فان لم يكن له سياج من العقل والتعفف والطيبة والاختبار كان سبباً للاضرار بمالكه وبالغير بدلاً من النفع . فكثيراً ما كان الاحسان مثلاً (وهو من ملطفات الشقاء) باعثاً على افساد النفوس وتعويدها الخمول والكسل والبقاء عالة على المجتمع وهذا لأن المثري المحسن لم يتخير مكان العمل ولم يعرف كيف يميز بين من يحتاجون

الصدقة و بين من يحترفون التسوُّل

☆ ☆

ليس المال كل شيء في العالم نعم إن له بعض القوة والنفوذ ولكنهُ ليس السلطان المطلق . وليس اكثر خطراً على الاجتماع ولا أضرّ بالهيئة الاجتماعية من انتشار الطمع والأنانية والانصراف الى الكسب بأي الوسائل شرفت أم سفلت فان هذا النقص الأدبي مما يجرد الانسان من كل صفات الانسانية الحقة ومما يجرد الرجل من حقيقة الرجلة وشعائر الاحياء فضلاً عن انهُ ينزع الثقة من القلوب و يملأها خبثاً ونفاقاً وختلا

ولا يراد بهذا القول الصواب منع كسب المال بالوسائل المعتدلة من الوجهات الشريفة المحللة ولا تحقير الثروة لحمل الناس على التجاوز عن طلبها والتعلق بها وانما يراد حصر الأعمال في الوسائل المشروعة السائغة وتطبيقها على القانون العام وهو تقدير الأشياء بقدر ما لها من القيمة الذاتية والاعتبار الأدبي ووضع الأعمال في مواضعها الحقيقة بها

لقد وجد المال لقضاء حاجات الانسان وواسطة للتعامل وتبادل المنافع فاذا ما تعدّى هذه الغاية وتحرر من رق الحقيقة وتغلّب على العقول وأفسد النفوس وصار له السلطان المستبد على الأفكار والقلوب وأزرى بالحياة الأدبية والكرامة والحرية وتعمّد الناس كسبه من كل سبيل كيفما سوّلت لهم أنفسهم وفتقت لهم الحيلة واذا ما ظن الأغنياء أنهُ واسطة للحصول على ما لا يجوز نيله من حقوق الناس أو أعراضهم

أو كرامتهم حق للعقلاء أن يتمرّدوا على هذا السلطان المستبد والمعتقد الباطل وأن يحاربوا هذا المبدأ الفاسد ليستأصلوه من العقول السخيفة والنفوس الموبوءة لتحل مكانه الحقيقة الصالحة للاجتماع فيتلطف الشرّ الفاشي ويقلّ شقاء العالم

واذا كانت قيمة الأشياء تقدّر بما لها من الضرورة والحاجة الماسة حقّ لنا أن نذكّر الناس بأن نعم الله الاكثر ضرورة للمخلوق الحيّ منحت بلا مقابل وهي مشاع للجميع فلا يجوز أن يكون لما لا قيمة له بجانب هذه الضروريات ذلك الشأن الهام والسلطان على كل العالم

الاعتدال وحب الظهور

من أشهر الأمور الصبيانية التي امتاز بها أهل هذا العصر حب الشهرة والظهور فلا يكاد الباحث يجد بين هذا الملأ من لم يتأصل فيه هذا الداء . وان الناس ليخالون الهدوّ والسكون عاراً لا يمحى فتراهم يتوائبون الى الظهور والاعلان عن أنفسهم بما في وسعهم وعلى قدر ما تفتق لهم الحيلة ظناً منهم أن الرفعة وكل الشرف في الظهور والحطة والهوان في الخفاء . بل ترى شأن من تجاوزتهم الشهرة شأن الضالين الذين لا يعرف لهم حيّز ولا مقرّ او شأن الغرق تحطمت بهم السفينة

فأقتهم على صخر في وسط المحيط فوقفوا على قمتهِ يلوحون بثيابهم ويبلغون السماء بصراخهم ليسمعهم سامع او يشعر بوجودهم كائن حي

وقد لا يقف حب الظهور عند حدّ الفضوضاء والجلبة للاعلان عن النفس بل يتعدّى تلك الوسائل العادية الى سواها مما يعدّ نقيصة وجريمة فكأن نفس الشيطان تقمصت سائر الجسوم البشرية فآذت الهيئة الاجتماعية بما تبتكره من الشرور والمفاسد

والحقيقة المرّة أن أغلب من ظهروا على مرسح الوجود وطبقوا بشهرتهم جميع الآفاق لم يصلوا الى ذلك الأوج الاّ من طريق الشرّ والرذيلة والخبث والتوحش . ولكن هذه النقائص التي تسقط اكرم الناس وتلطخ اسمهُ بأخبث ادران الشهرة السيئة تزول مسحتها مع الشهرة فلا تراها العيون أو أن الناس يطبقون جفونهم كيلا يبصروا هذه العيوب المذمومة أو هم لا ينظرون الى الانسان الاّ بالصفة التي يريد الظهور بها بينهم . والحال على عكس ذلك تماماً مع كل من يسوء حظهُ ولا يفلح في نيل الشهرة فان الناقدين يجردونهُ ظالماً من كل صفاته الحميدة وينسبون اليهِ ما ليس فيهِ وما لم يكن من صفاتهِ الحقيقية

وليس الجنون حباً في الظهور خصيصاً بذوي العقول السخيفة او برجال المال والدجالين والممثلين وانما هو جنون يصيب طوائف الانسان بلا فارق ولا تمييز . وأشد ما تكون وطأتهُ على رجال السياسة والأدب والعلم والدين فان هؤلاء الرجال الممتازين مع ما اوتوا من

علم ومقدرة اكثر الخلائق تطلعاً الى الشهرة

ومن المصاب أن رجل الخير الذي يعمل الطيبات يملأ الدنيا طبلاً وزمراً حينما ينهض لعمل خيري ليلفت الى شخصهِ أنظار العالم ويستدرّ المديح والإطراء . وكم برزت العقول في استنباط الوسائل الشيطانية للاعلان عن النفس والتغرير بالناس ؟

لقد أعمى الغرور البصائر ووصل الى حيث كانت الرزانة والتعقل فهوّش عليها وزعزعها حتى ضعفت مواهب الادراك والتمييز لكثرة التفنن في التغرير والتمويه فلم يعد الانسان يستطيع تقدير الاشياء قدرها الحقيقي لما يحوطها من الوسائل المختلفة لاخفاء معالمها واظهارها في أرقى من حقيقتها . واذا كان العقل لا يهتدي الى الحقائق في وسط الضوضاء فمن البديهي ضلاله وتخبطه بين كل هذه الظواهر الخداعة حتى زهقت النفوس وضاقت الصدور تألماً من الغرور السائد والضلال العام

من يسأم العيش وسط الجموع ويضرّه العثير الثائر ويؤذي مسامعه تنافر الأصوات يترك ذلك المكان ويفزع الى ناحية من الأرض الفسيحة ليجتلئ منظر الطبيعة الجميل ويعجب بمجرى الماء المتدفق بين المزارع بلا جلبة ولا حسّ اللهمّ الاّ ان كان له خرير يشجي ولا يسأم . وليس يسع الانسان الاّ الابتهاج بمشاهد الغابات وهدوّها الشامل فيرتاح الى الوحدة وتنقشع عن عينيهِ السحب الخدّاعة

فيرى بهاء الكون وجمال الحياة بين هذه النعم التي خلقها الله للمرء فعافها كفراً بالنعمة وتطلع الى ما يشقي ولا يسعد فكان كفوراً غشوماً

ان العزلة والبعد عن المجتمع الفاسد المضلّل خير من الحياة المتعبة وسط الجموع التي ترى الراحة في الخداع والغش ابتغاء المنفعة الشخصية والرقيّ ولو فوق أكتاف الناس ورؤوسهم . ما أشهى الحياة بين مناظر الطبيعة الجميلة و بين الحيوانات الهائمة على وجهها فانها اكثر إيناساً من الانسان الخبيث وأقل أذًى وضرًّا من هذا الوحش المتحضر !

ان من يرتطم في المدن ويحشر بين الزمر والجموع يشقي نفسه وينسى الخالق لأنهُ لا يذكره ولا يتمكن من رؤية السماء التي تظله ما دام لاهياً بما أمام عينيهِ عن مشاهدة تلك الصحيفة الصافية وعما فيها من الكواكب المتلألئة والنجوم الزاهرة المتألقة . فاذا خرج من تلك الدائرة الى حيث تقلّ شرور الانسان عاوده العقل والشعور وشاهد جلال الخالق في جلال صنعهِ وشعر بسرور النفس وارتياحها الى الوحدة والابتعاد عن ذلك الوسط الموبوء

اخرج الى الفضاء غير المحدود حيث تخشع النفس هيبة واجلالاً وانظر الى الأفق المترامي الاطراف وهو يشير الى أبواب الأبدية تعرف حقارة الانسان المختال . وانظر الى الازهار العطرة في المرج الزاهر وألوانها الزاهية وأشكالها البديعة تعرف قصور المخلوق عن مجاراة الخالق المبدع وتشعر بضعف ذلك المكابر المعتدّ بنفسه

ان الصانع القدير يعمل بلا جلبة ولا يتكلف أقل عناء لاظهار مقدرته على الاجادة والابداع ويترك الناس تبحث عنهُ وتنقب عن إجادتهِ وابداعهِ . فلا تخدعنَّ العاقل المظاهر والظواهر وليعلم أن كثرة الاعلان دليل على حقارة المعلَن عنهُ فان التجارب العديدة أثبتت صحة هذا القول وما على الانسان غير الاختبار والتجربة ليخرج الشك من صدره ويقف على الحقيقة الكاملة

في الهيئة الاجتماعية كثيرون من رجال الخير يعملون من وراء ستار ويضمرون في أنفسهم آراءهم ومشاريعهم الخيرية ويكتمونها لأن القلب الطيب الذي يتصباه حب الاحسان والعمل الصالح يرى سروره في الكتمان والاحتفاظ على الخلة الحميدة كأنهُ يخشى ان تؤثر فيها الاذاعة تأثيراً سيئاً ويرى اغتباطه بالكتمان أكثر من شغفه بالعمل نفسه فلا يقف على ما يجول بخاطره الا الله . وكلما حرص على هذا المبدأ كلما افتتن به وتجددت قواه للدأب والمثابرة فاذا اهمله وانخدع مأخوذاً بالمجد الباطل والظهور الكاذب زالت هذه الخاصية ومات في قلبه السرور الذي ألفه واعتاده . وقلّت قيمة عمله حتى في عينيه . إن الظهور يكلف الانسان عناء وجهداً ويأخذ ثمنه الباهظ من قدر العمل وقدر الانسان في نظر نفسهِ . وينتج من ذلك أن تكون قيمته الحقيقية أقل بكثير مما يلوح للناس ويذاع عنهُ . أما من لا يريد بعمله غير القيام بالواجب وارضاء الله والضمير فانهُ ينال أجره كاملاً ثواباً من

الخالق وسروراً نفسياً لا يعرف لذته غير من ألفوه وشعروا بهِ فاذا ما أرادوا أن يعربوا عنهُ قلت قيمته وزال عبيره

ان عشاق الطبيعة يناُون الى حيث لا يكدّر صفوهم طارق ولا طارىء ويتفردون ويعتزلون حيث لا تزعجهم الناس والخلائق فيقضون شطراً من الحياة في التمتع بمرأى جلالها وبهائها حتى لينسيهم الحياة مرأى الطائر في خلوتهِ يبني عشّه أو يطعم فراخه وهو في بيتهِ الحقير على فرع الشجرة في عيش رغد لم يعرفهُ أسعد الناس حظاً وأهنأهم عيشاً

وهل يمكن للانسان أن يقدّر سروره بمشاهدة قطيع من النعام او الظباء يمرح ويلعب في فضاء من الأرض مستسلماً للسرور واللعب غير حافل بالكون ومشاغله الجمة ؟ وهل في وسعهِ أن يوقف الناس على مقدار هذا الشعور أو يريهم هذا المنظر بدون أن يعكّر على الحيوان صفو هنائه ويجعله ينفر طريداً في الفلوات مجفلاً من منظر الانسان المتطفل ؟ فكذلك حال الانسان في عمل الخير فان سروره بهِ يزول عند الاذاعة ولا يعرف عنهُ الاّ ما عرف النازحون لرؤية قطيع الظباء

فالحكيم من يتوخى فعل الخير ويفعله هادئاً ليكون له من عمله لذّة المعجب بالطبيعة في خلوتهِ . وليكن عمله مجرداً من الغاية وهو مقتنع بأنهُ انما يعمل غير طامع في الجزاء والشكر

ربَّ واهم يظن ذلك محالاً او يتصوّر العالم خلواً من أفراد لهم

هذه الميزة الحسنة . والحقيقة ان الوجود عامر بكثير من اولئك الأفاضل الأجلاء . ولو شاء أحد أن ينقب عنهم و يدلّ الجمهور عليهم لأساء اليهم في أعزّ أمانيهم وهي عمل الخير في الخفاء والابتعاد عن الشهرة

والمحب الانسانية العامل لاسعادها يتمنى أن يكثر عددهم وتشتد عزائمهم وأن يحذو الناس حذوهم في الرغبة في المساعدة والاصلاح بلا اعلان عن النفس ولا اعتداد بالشهرة لأنها في أغلب الأحايين تكون وهمية لا وجود لاسبابها . فلو كان كل براق ذهباً لما كان لهذا المعدن النفيس قيمة تذكر لكثرة المعادن ذات الطلاء الذهبي

ان من يعتدّ بالشهرة يخدع نفسهُ لأنهُ يخدع الناس اولاً ثم يغترّ بذاتهِ فيضل عن معرفة حقيقة شخصهِ ولا يعود يهتم الاّ بما له من شهرة وذكر فتنحصر حياته ومجهوداته في الظهور وخلق أسبابه وفي هذا ما يكفي لصرفه عما يفيده اخلاقياً وادبياً ولحبس انظاره في مجهر اسود

يظهر الممثل على المرسح في لباس الملوك وجلالهم فهل له حقيقة قدر الملوك ؟ وهل يقدر على الظهور في الشوارع و بين الجماهير بتلك الملابس المطرزة الموشاة بدون ان يناله من الهزء والسخرية ما يردّه الى التعقل والندم ؟ ان عاشق الشهرة لأقرب الخلائق شبهاً بممثل المراسح فاذا ما دخل خلوته وخرج من ثيابه كان شأنه شأن ذلك

القيصر الكاذب اذا ما خرج من المرسح ودخل غرفة الزينة حيث ينزع لحيته ويطرح رداءه الموشى ليعود الى حاله الحقيقية وشكله المعهود

قارن اذن بين ذلك الرجل المخادع اذا ما خلا بنفسهِ وتجرد من مظاهره واستلقى على سرير راحتهِ وبين فاعل الخير اذا ما اضطجع ليرقد فليس من الصعب ادراك ما يتردد على افكار الرجلين او تصوّر ما يشعر بهِ قلباهما ولا من العسير معرفة ايهما اكثر سروراً من نفسهِ ورضاء من حاله واطمئناناً الى الحياة

ليس السرور الحقيقي في الابتسامات المطبوعة على الشفاه وانما هو شعور داخلي يرقص له القلب ويفرح به الفؤاد فينشط الروح ويشرح الصدر . واذا شبهنا الناس بالصناديق نرى هذه سواء في الشكل الظاهر ولكن قيمتها فيما تحتوي عليه من النفائس . وليس من يقول بتماثل المملوء هواء والمملوء درّاً . فتقدير الرجال انما هو بالاعمال لا بالجسوم فمن شاء أن لا يكون شبيهاً بالمعدن البراق الكاذب أو بقيصر المراسح أو بالصندوق الفارغ فعليه ان يدرج في سبيل الرجال العاملين لنفع المجتمع الانساني مجرداً من الغاية غير حافل بالظهور والشهرة والاعلان عن نفسه وعمله . وليكن اجلاله لفاعل الخير المجهول عظيماً واعترافه بفضله عن صدق واخلاص وليذكر دائماً انه لولا الاحجار المخبأة تحت الجدران لما عمرت الابنية طويلا ولا عاشت دهراً

فالخير المجهول والمعاونة المستورة والاصلاح السري هي من أقوى أساس تقدّم الهيئة الاجتماعية وتخفيف متاعبها وتلطيف همومها

ولو كفّت تلك الأيدي الكريمة عن العمل المستور واقتصرت الحال على عمل من يتظاهرون بالمساعدة ونصرة الانسانية لمجرد الشهرة بذلك لعرف الناس قدر أولئك المتنكرين وللمسوا فضلهم ولم يعودوا يغترون بترهات الخداعين المضلين عباد الشهرة والظهور

الحياة العائلية والاعتدال

ورث أحد الاعيان عن أبيهِ مالاً طائلاً وعائلة سعيدة وخصالاً حميدة وذكراً جميلاً فقضى حياته فاضلاً كاملاً بغير ان يذاع عنهُ ما يثلم سمعته او يحطّ من منزلته في نظر العقلاء غير ان أحد الامراء الحاكمين جاء لسوء حظ ذلك الوجيه فابتاع ضياعاً الى جواره وشاد قصراً على مقربة منه فلاح للرجل ان يضيف الامير لينال حظوة في عينيهِ ويفخر بذلك الشرف على أقرانهِ وأبناء بلاده . ولما كانت الدار التي ورثها عن أجداده على طراز المباني البسيطة الخالية من الزخرف والطلاء رآها غير لائقة بمقدم ضيفه الكريم فسلط عليها معاول الهادمين وشيد على أنقاضها قصراً فخيم البناء رحب الفناء ثم شمر عن

عن ساعده وفتح خزائنه الضخمة فحوّل ما فيها الى تجار الرياش والذرابي النفيسة فأعاضوه من ذهبه الوهاج ما لا يثمر الا الاحتفاظ عليهِ بالعناية والبذل حتى يذهب الزمان بجدته . وما برح يجمع من الطرف حتى نفد ماله او كاد ثم لبث ينتظر حلول الامير حتى حلت بهِ الكوارث ونزل عليهِ الفقر قبل ان ترى داره وجه الضيف المنتظر . فما أغنـاه قصره ولا سترت الرياش عوزه ولا أخفت السجف عن أعين الناقدين الشامتين فاقته

ان مثل هذا الجنون ليصيب كثيراً من الناس على صور مختلفة فيضحون راحتهم العائلية في سبيل التمتع لحظة بما لا يفيد وجوده ولا يضرّ عدمه . وان هذا الخطر الداهم ليصيب الكثيرين على مرأى الناس ولكنهم لا يقلعون عن الشطط ولا تعظهم مصائب الأيام حتى يصيبهم المحذور فيعضون البنان أسفاً حين لا ينفع الأسف . وما أشبه ذلك النفر بالأعمى الذي لا يستمع إرشاد الناصحين حتى يقع في الحفرة فيستنجد من هزأ بنصحهم

كم من الأموال الطائلة بذلت في سبيل الترف وامتاع النفس بما هي في غنى عنهُ وليس من مقتضيات العيش والهناء ؟ وكم من الثروات ضاعت في اعداد معدات السرور والنعيم قبل أن يحصل المبدّد المسرف على ما أراد ؟ إن من الجهل المطبق الشذوذ عن العادات الحسنة والتطرف في طلب السعادة من غير طريقها و بذل

الراحة والمتاع للحصول على ما عاش الانسان دهوراً قبل ابتداعه وبدون حاجة اليهِ

إن السعادة العائلية لتقتضي الاعتدال والحكمة فان كل ما يهوّش على الحياة العائلية يضرّ ويؤثر على الهيئة الاجتماعية . ولكي يحفظ كيان الأمة من التزعزع والوهن يجب أن تخرج العائلات لرآستها وتدبيرها افراداً لهم من التربيـة والاعتدال ما يكفل توفير السعادة لعائلاتهم والعمل لما فيهِ رقيها وراحتها . فمن المعقول أن رقيّ العائلات يساعد على رقي الجماعة ويؤثر في الاصلاح العام تأثيراً فعليًّا والا فان ضعفت الرؤس ضعفت العائلات وارتج معهـا أساس الاصلاح فتصبح الأمة كقطيع من الانعام فقد الراعي وضلّ الحارس

من المحال أن تتكون قوة الأمة ويتمّ اصلاحها بغير اصلاح الافراد والعائلات . ومن شاء أن يرى كيف تزول العادات القومية وينضب نبع الحمية الوطنية ويسود الجهل على الشعوب فليدرب العائلات على التهاون في شؤونها الخاصة وعلى ترك العناية بتربية أفرادها التربية الصحيحة فانهُ لا يمضي ردح من الزمن حتى تتراجع الأمة الى أحط منازل الحياة وأسفل دركات الوجود

من الصالح العام أن تكون كل دار هيئة منتظمة يرفع فيها عماد الاحترام ويتبادل افرادها الحبّ الخالص كما يكون ذلك متبادلاً بين العائلات فيتكون المجموع من اجزاء منتظمة صالحة قوية فيظهر صالحاً

قوياً منتظم الحركة في التقدم والرقي وتكوّن الوحدة المنتظمة التي تنشدها الأمم ويتمناها كل وطني صميم

ان بعضاً من العائلات تتحصن بانزوائها بين الجدران وتبعد عن الجماعات الاّ فيما يتعلق بشؤونها الخاصة غير حافلة بما لا يكون خصيصاً بهـا . فهذه العائلات حجر عثرة في سبيل الوحدة القومية المقصودة والرقيّ المنشود . وليس من المبالغة ان يقال انها دخيلة ايضاً تختلس ما للأمة وتهضم حقوق الاجتماع ولا بدَّ وان تؤدي هذه الأنانية يوماً ما الى بذر بذور الشحناء والبغضاء بينها وبين سواها وتكون قرحة دامية في جسم الأمة والوطن . فحقيق بكل انسان ان يستأصلها ليطهر المجموع من مضارها التي هي ضرر النوع الانساني وعدو المدنية والاجتماع . ولا يفوت العقل ان هنالك فرقاً واضحاً بين أمثـال هذه العائلات وبين الأحزاب المتنافرة لأن الحزب مجموع يرتأي رأياً يقتنع بوجاهتهِ فيعمل لتعزيزه ونشر مبادئهِ ابتغاء المصلحة العامـة ولو كان ذلك على غير رأي خصومهِ والخارجين عليه

ان الاحزاب تعمل للصالح العام كل على قدر ما يرتأي ولكن العائلات المعتزلة لا تهتم بغير مصالحها الشخصية فتكون حملاً على المجتمع وضرراً عاماً بين الناس

العائلة هي الأساس الوحيد لتقدم الأمم ورقيّها فيجب ان تكون العناية بها شديدة لأنها واسطة لنشر الفضائل والأخلاق القومية وفيها

ينشأ الأفراد على المبادئ الشريفة او السافلة . وعلى قدر حضارتها ورقيها يكون رقيّ الأمة بالنسبة للأمم الراقية والشعوب المتحضرة واحتفاظها بمجدها السابق ووطنيتها المقدسة . ويظهر ذلك جلياً في كل شيء . يظهر في الأفكار والأعمال وفي الأقوال وفي مكنونات الصدور وفي العواطف وفي كل المظاهر حتى ليظهر ذلك في المصنوعات كالاثاث والرياش والملابس والأغاني والأناشيد

ان هـذا كلهُ ليس بالشيء الخطير في نظر الغبي ولكنهُ ذخيرة ثمينة وتميمة مقدسة في نظر الحكماء ومن يعرف قيمة الحياة العائلية والوحدة القومية

* * *

ان البدع من الأسف أخذت تقوض دعائم العائلات وتلاشي اسباب السعادة والهناء بكل الوسائل الفعالة كالخصال الغريبة والعادات المستحدثة والمطالب المختلفة والترف والتبذير . وبهذه الاسلحة القتالة تمكنت البدع من افساد نظام العائلة والعبث براحتها وهدوها المألوفين فأضرّت بها ضرراً عظيماً يشكوه كل فرد على حدته ويتألم منهُ المجموع على الاطلاق

عجيب أن يتخلق النـاس بهذه الاخلاق الموضوعة على سبيل التقليد والمجاراة بدون أن ينظروا الى النتيجة أو يفحصوا ما يكون للبدعة الجديدة من حسنات او سيئات فكأن حالهم معها حال الأمة المحتلة

مع القاهر المستبد تسخر الأبناء لطاعته ويهمل العمل والصالح الشخصي ويضحي كل عزيز ونفيس لمرضاته . وأنى له ان يرضى وقد جاء لهذا الغرض ومصلحته في تخريب العامر وتدمير القائم حتى لا ترتفع رأس عن موطىء نعليهِ ولا يفاخر سيد بخيله وعدده ؟ فالعاقل من لا يكلف نفسه الاّ وسعها فيبقي على ما ملكت يداه ويحتفظ بهِ مهما اختلفت الظروف وتبدلت الأحوال والأزمان

ان البدع لتتسرب الى العائلات تحت زي المدنية ومقتضيات الضرورة فتراها تصل الى النفوس فتتأصل فيها ويتبدّل كل خلق كريم وذوق سليم فتتبدّل الاشخاص والآثاث والعادات . وما اكثر ما تروج في فرص الأعراس والمآتم حيث تنشأ العائلة تتقزز من كل قديم ألفتهُ وتسخر مما كان للسلف عادة جارية وهنا يبدأ الخطر وتظهر أوّليات المصاب

وان المرء ليستهين أولاً بالأمر فيبدّل الاثاث ثم لا يلبث أن يبدّل تدريجاً ما كان محتفظاً بهِ من التقاليد القديمة والخلال التي شبَّ عليها وتلقاها عن الاقدمين ثم يتبعها بالفضائل وسائر الصفات الحميدة فيخلق خلقاً جديداً على ما شاءت اهواؤه وسوّلت نفسه الخبيثة ونفدت فيهِ ارادته الضعيفة . وما هي الاَّ فترة وتنزل العائلة نفسها بين وسط جديد وتأخذ بأسباب عيش لم تعهده فيحدث الانقلاب التام وتتلاشى العادات القومية وتنتشر المدنية الموهومة مراعاة

للذوق الجاري ومقتضيات العصر الجديد . وقد تعرو الانسان دهشة اذا صوّرت له حالتـه تصويراً دقيقاً ولا يكاد يصدق ان الانسان الأول هو بعينه التمثال الجديد

ولو وقف الحدّ عند تلك الحال لهان الخطب ولكن الداء المتأصل تكثر ميكروباته مع الأيام فيبتدىء الألم و يشتد الضجر حتى تزهق النفس . وقد يعود للعين بصرها وللرأس فكره ولكن يوم لا ينفع البصر والفكر يوم يستعصي الشقاء و يستحيل الخلاص من براثن المرض الفتاك

ان البدع لأشدّ فتكاً بالأمم والشعوب من الاوباء بالعباد . وان الشكوى من الادواء المنتشرة ومن تأثير المدنية الحديثة في الفضائل والأخلاق لأعمّ من الشكوى من الفقر وضيق ذات اليـد ونكد العيش وخيانة الأصدقاء . وكم من بدعة ظهرت مليحة حتى اذا انتشرت بان ضررها البليغ فعلت الشكوى وارتفع الصراخ من هول النتائج ؟

وان الحكيم ليعوذ من البدعة والمبتدع ومن كل مرادفات هذه الكلمة وما يشتق منها . وخير للمرء ان يتدبر قبل ان يتورط ويتئد قبل ان يشتط وان يحذر ويحرص على مبادئه وعاداته القويمة وأن تكون له ارادة قوية تشد عزمه ورأيه للذود عن تلك الخصال الحميدة والطبائع الممدوحة التي توارثناها أباً عن جد . فان الفضائل خلقت مع

الانسان ولم يعبث بها غير مرور الزمن وتقلبات المطامع . نعم ان لكل جديد طلاوة الا انهُ في غير نفاسة القديم الجيد . فليتقِ الله المبتدعون وليحرص على كرامتهم العائلون

* * *

ان الكثيرين من الشبان لا يتبعون عند زواجهم العادات القويمة المألوفة وينزعون الى العادات المبتدعة جرياً وراء التمدن الكاذب . فبدلاً من ان يقتدوا بآبائهم في حياتهم ومعيشتهم الاقتصادية يندفعون مع تيار الغرور والتقليد فيبذرون ذات اليمين وذات اليسار ويتطرفون في الافكار العقيمة والاقوال السخيفة والاعمال الصبيانيـــة . فيفرغ المتزوج ما في وسعه ليبتاع فرش الدار وأثاثها على آخر طرز مبتدع نافراً من كل مألوف شبَّ عليهِ واعتاد مشاهدته ولمسه في داره . وعذره في ذلك انهُ ابن العصر الجديد الذي هو خليق بزخرف المدنية الحاضرة على ان ذلك يمحو من ذاكرته كل أثر للماضي ويذكّره دائماً بما يراه في الاندية والمجتمعات والمراقص العموميـــة . يذكره بالشطط والنزق فيطير الى حيث يكرع كأس المدنية حتى ثمالتها ولا يعود الى داره الا متعباً منهوكاً . فيسلم جسمه الى الرقاد ويقهره سلطان النعاس فلا يفتح عينيهِ حتى يذكر موعداً يوشك ان يفوت ميقاته وما هي الا ان يهب الى ملابسه هبوب الخاطف الى لقطته ويطير الى حيث يودّع الفضيلة والراحة والسعادة

عجيب ان لا يقدّر الانسان على البقاء لحظة في داره بين ما جمع من أثاث العصر الجديد ورياشه البديعة ! انها بلا روح ولا ذكرى فهي لا تؤثر على النفس والروح . ان ولع الناس بطول الغيبة عن منازلهم وعائلاتهم لشديد كأنما هم يخافون قرب انقضاء العالم فيبادرون الى اشباع النفس بملاذ الحياة والتردد على جميع الأمكنة وهم في ذلك أشبه شيء بتلك الخيالات السيناماتوغرافية اذا ظهرت في ناحية لا تلبث ان تغادرها بسرعة . وان هذه الجماعة لا يطيقون البقاء بين ذويهم بل يفضلون الكدر خارج منازلهم على السرور والسعادة في دورهم وقصورهم . فهل هكذا كان شأن السالفين أم كانوا يقيمون على أرائكهم وبين أهليهم ما خلوا من أعمالهم ولهم من السكينة مظهر جليل ولمرآهم وقار وهيبة يشعر بها القريب والبعيد ؟ كانوا اذا تزاوروا فللسمر وتبادل الود وتوثيق روابط الالفة والأخاء

الا انهُ لو بعث امرىء من قبره ورأى حياة اليوم وأبناء هذا العصر لظن المجانين قد فرّوا من مستشفيات المجاذيب وجعلوا يعبثون بالراحة ويقلبون نظام العالم . إن الفساد عم كل الطبقات ولم تخلُ منهُ الضياع والقرى وحذا الناس حذو بعضهم في هذه الطريق المحفوفة بالمكاره حتى أصبح من المدنية ودلائل الرقي هجر الدور لتعمير الحانات والمواخير

وليس الفقر ونكد العيش الذي يشكو منهُ العالم بكافٍ للدلالة

على سوء الحالة التي وصل اليها أبناء العصر الحاضر . ولو تساءلت عن السبب الذي يدعو القروي إلى هجر داره وقضاء أغلب أوقاته في حانة القرية مع ان الدار هي بذاتها التي نشأ فيها وألف أركانها وقاعاتها ودرج منها أبوه وجده لم تتبدل ولم تتغير ولو تساءلت عن السبب الذي جعله يتأفف من المجتمعات العادية في ضوء القمر في عرصات الدور حيث كان يغنّي مع رفاقه ويضحك بملء فيه لكان الجواب على ذلك انهُ أخذ من الحضارة والمدنية بقسط عظيم

أللهمَّ ان كانت المدنية هي هذا الفساد الذي يخرب الدور ويفرط عقد العائلات ويزجّ بالرجال في مواخير الفجور وحانات الخمور ويفسد العقول والنفوس ويميت الضمائر ويطرد السرور من القلوب ويقتلع السعادة من البيوت الآهلة فانها لبئس المدنية وخير منها البداوة والهمجية

المدنية الصحيحة بعيدة عن مثل هذه النقائص بعد الخير عن الشر . وما هذه الاَّ افراط لارضاء شهوة النفس وتقليد نشأ عن ضعف الارادة والتورط في المضار بغير تفكير ولا تدبير وعن اهمال الواجبات العائلية والابتذال في سبيل الملاذ المضرّة بالصحة والسمعة وترك الاعتدال في العيش والسرور

ولا يقوّم هذا الاعوجاج غير الرجوع الى العادات القديمة الحسنة واحتقار هذه المضار المتفشية احتقاراً ينفّر منها النفس ويردعها عن الغي عساها ترعوي وتنشط للتطهر من أدران تلك الحياة المرتبكة . ان من

عادات الأقدمين في اللهو والسرور ما يشرح الصدور ويبعث في القلوب الفرح والابتهاج . فنو تعمد تلك الوسائل نفر من الشاردين وقارَن بين الأغاني القديمة المهذبة و بين ما يتغنى بهِ اليوم دعاة الفجر والفساد لتهييج العواطف وسحر العقول لعرف الفرق بين الفضيلة والرذيلة والميزة بين العفاف والدعارة

زينة المرء الخلق فالأخلاق حلية الرجال ودليل التكمل وكل فرد سفلت أخلاقه سقط في نظر الناس . والأمة مجموع الأفراد فمتى انسرح أفرادها من الأخلاق الفاضلة تجرّدت الأمة من دلائل الكمال وخلا مكانها بين مصاف الشعوب الراقية . فالحكمة في الاحتفاظ بالاخلاق والعادات القومية احتفاظ العارفين بالآثار النفيسة فانها عنوان الكمال والدليل المحس على الرقي والتحضر

وقد يلاحظ ان هذا محال على كثيرين لوفرة جهلهم كل ما يختص بالحياة العائلية والأخلاق الفاضلة . والحقيقة ان المحال او العسير انما هو وجود روح الاعتدال التي تحبب الحياة العائلية الى الانسان . فاذا ما وجدت سهل غيرها من وسائل السعادة على المرء لأنهُ يستطيع أن يقلد الحسن كما استطاع أن يقلد غيره من المفاسد والمضارّ

ان الحياة العائلية لا تحتاج أفراداً عديدين او داراً مشيدة او سعة ليست في استطاعة العائل . فالرجل يستطيع أن يهنأ في كوخهِ وينعم مع زوجتهِ ويجعل السعادة ترفرف على خصهما الحقير متى

عرف كيف يعيش ويبعد عن مزالق الحياة الفاسدة ويقمع شهوة النفس الخبيثة

انك لتدخل داراً فلا تتجاوز سدّتها حتى ينقبض صدرك وتحسّ بالرطوبة تمشي في كل مفاصلك وتشعر بقشعريرة في كل جسمك. وتدخل داراً أخرى فلا تكاد تتجاوز بابها حتى ينشرح صدرك وتشعر بالانشراح والسرور الداخلي بلا سبب ظاهر. ما هذا إلا لان للقاطنين تأثيراً في الأماكن فتظهر عليها مسحة مما على ذوي الدار وأربابها

ان المرء لينتقل من دار الى أخرى فيحن الى القديمة ويمرّ بجدرانها فتذكره بكثير من حوادث الماضي والأوقات الهنية. وانهُ ليتعلق بريحانة يغرسها على حافة النافذة ويتعهدها بالسقيا. وانهُ ليحتفظ بأثر من الآثار وقد لا يساوي شيئاً وهو يجد في تلك الاشياء سلوةً وعزاء وتذكارات لذيذة تعيد الى القلب شيئاً من السرور او السعادة الماضية. فهل يشعر ابناء هذا العصر بشيءٍ من هذا الشعور؟ ان التحوّل الدائم والتغيير المستمر في الأماكن وشكلها ورياشها وفي الأخلاق والأذواق والعادات يترك الناس على غير هدى ومبدأ ثابت.

* * *

ألا ان دار العائلة هي الموئل الذي يجد فيهِ المرء الراحة عند التعب والحب الطاهر ان عرف كيف يغرسه ويواليه حتى ينمو ويترعرع فيقطف من ثمره الناضج وزهره العطر. وهي المكان الذي يجد فيه

العزاء ان اصيب بمكروه والعناية ان مرض والراحة ان شاخ وهرم وفيها وبهـا يخدم الوطن ويخرّج له ابناء صالحين يعملون لصالح البلاد ونفعها

الكبر والاعتدال

ربما تعب الباحث دون ان يجد موضوعاً غير الكبر يثبت بهِ ان العقبات التي توجد في طريق الرقي الاجتماعي يخلقها الانسان لا الظروف

ولو كانت المصالح المتباينة والمراكز المتفاوتة هي وحدها سبب الخصومات ومنشأ الشجار والعراك لكان السلام سائداً بين المتكافئين في الطبقات والمراكز وذوي المصالح المتماثلة والحظوظ المتشابهة ولزال من بينهم كل اختلاف . والحال ان أشد العداوات ما كانت بين المتناظرين المتساويين في الجاه والمركز والثروة والمهنة وبين الانداد والرفاق . ولو أنصف الناس لاعترفوا بان سبب الخصام والعداء انما هو في الحقيقة الغطرسة والكبر فهما يجعلان الرجل كالمنفذ ما مس غيره الا وآلمهُ وآذاه

الناس لا يغيظهم من الغني الوجيه وجاهته وغناه ولا كثرة خدمه وحشمه ولا فضته وذهبه ولا زينته وظهوره بل يغيظهم الاحتقار الذي

يتعمده والتعالي الذي يظهر به . وما يسوءهم ان كثر مال زيد أو قلّ ولا يضرهم ان تبرج وتزين ولا يقهرهم ان استكثر من الخدام والاعوان لان كل هـذا خاص بهِ وليس فيهِ أذى للناس . ولكن يؤلمهم ان يجرح الرجل عواطفهم بتعاليه واحتقاره شأنهم وشموخه عليهم حتى ليفترض عدم وجودهم وتجردهم من مميزات الانسان لا لسبب غير اكثاره واقلالهم وغناه وفقرهم . انهُ بذلك ليؤلمهم بلا فائدة يجنيها وان النفس العاليـة لهي التي تثور في وجه ذلك الشامخ الوقح . وليست هذه الثورة عن حسد ولكنها احساس العاطفة المجروحة التي تنزع الى الثأر وتأديب المعتدي والا فلا كرامة للنفس ولا قيمة . وكل امرئ خالط الناس وعرف واجبات نفسه وما عليها يعترف بصحة هذا القول ولا يكابر او ينكر التأفف والاستياء العام من كل متكبر مختال

ان هذا الداء كثير الشيوع والانتشار حتى ليكون قدر الكبر على قدر الثروة او يزيد والوداعة على قدر الفقر والعوز . فالغني يحتقر من دونه وشأنه مع الاكثر مالاً وجاهاً شأن المقل في نظره . ولهذا هام الناس بالتطلع الى ما فوق آفاقهم والوقوف في غير مصافهم فنشأ عن ذلك التزاحم والعراك . ووجدت الخصومات في القلوب أبواباً مفتحة وأرضاً ممهدة فغرست فيها بذور المنافسة والشقاق . وليس الفقر هو السبب الرئيسي وانما الكبر والصلف

من الاغنياء كثيرون لم يصبهم هـذا الداء الوبيل وجلّ هذا الفريق ممن ورثوا الجاه والثروة أباً عن جدّ . فعلى قدر أنسابهم علت نفوسهم وطابت قلوبهم . ولكن أولئك ايضاً يجهلون ان ظهورهم بالبذخ والاسراف والفخفخة يخلق الحسد في قلوب ذوي الفاقة ومن لم تحصل ايديهم على فتات الموائد وثمالات الكؤوس ومطّرح الثياب الخلقة

أليس من الذوق السليم اجتناب القوي الممتع بالصحة والعافية ذكر ما يتمتع به من راحة وهناء في نومه ويقظته وفي اكله وشربه امام المريض الذي يدنو من ساعتـه الاخيرة ويهيأ له القبر؟ كثيرون من الاغنياء ينقصهم الذوق السليم والشفقة والحكمـة لانهم باعمالهم يثيرون على انفسهم نفوس سواهم ويحركون عوامل الحسد . فهل يجوز لهم بعد ذلك ان يتأففوا من العواقب او يستاءوا من نتيجة المقدمات التي وضعوها بانفسهم ؟ ان ضعف التمييز هو الذي يجعل الاغنياء فخورين بما ملكوا وينفث فيهم روح الاختيال والكبر

من الخطأ الاعتقـاد بان الثروة من الصفات الشخصية التي ترفع او تخفض قدر الانسان فقيمة الشيء في ذاته لا في الغلاف الذي يحتويه . والعاقل من لا يخلط بين ما يملكه وبين شخصه لان الفصل بين الاثنين سهل وممكن في كل الاوقات . والجوهر النفيس لا تقلّ قيمته او تكثر بتغير ما يحفظ فيه . فالمتكبر مغرور ومخدوع وكثيراً ما ينسى ان التملك عارض يزول وان الانسان من افراد الهيئة

الاجتماعية كبر أو صغر . فيجب ان يكون كل ما يعمله موجهاً للصالح العام قبل أي غرض آخر

ومن ضعف العقل تصور الغنى والثروة وسيلة للتمتع بما تشاء النفس وتجنح اليها ميولها . وهذا نرى القليل من الخلق يعرف كيف يتربع عرش الغنى والجاه فكم من الملوك تواتروا على عروش الامم ولكن النذر القليل منهم عرف كيف يحكم ويتربع العرش . وكما كان التاج شوكاً في رؤوس الكثيرين من الملوك فكذلك نرى الثروة بين يدي الكثيرين من ذوي الغنى كالقيثارة بين حفري الدابة لا يعرفون التمتع بها كما لا يعرف الحيوان التوقيع على الآلة ليطرب

والغني الذي يعرف ان الثروة ليست الا وسيلة لتأدية واجباته الانسانية وقضاء حاجاته المعتدلة وحاجات المجتمع الذي هو فيهِ هو رجل يجدر بهِ التبجيل والاحترام لأنهُ الانسان الكامل . وهو عاقل لم يغترّ بوسائل التغرير التي تلعب برؤوس الكثيرين من أمثاله . وهو حكيم لأنهُ لا يخلط بين قيمة ما في جيبه و بين ما في رأسهِ ولأنهُ يقدّر الناس بالصفات والأعمال لا بالجاه وكثرة الاموال . وان هذا الرجل ليتضع بدلاً من ان يشمخ لانهُ يعلم مقدار المسئولية التي عليهِ والواجبات التي يستدعيها مركزه الاجتماعي . فبدلاً من ان يكون غليظاً صلفاً تراه وديعاً لطيفاً وعوضاً من ان يحتجزه الغنى عن بقية العالمين يتخذه واسطة للقرب من اخوانهِ والأخذ بناصرهم متى كانوا في حاجة

الى ذلك . ان مثل هذا الرجل ليخفض من حقد الناس على الاغنياء الاغبياء الذين يثيرون على أنفسهم سخط الجمهور بما طبعوا عليهِ من العتوّ والكبر . وان من يجتمع بمثل هذا الرجل لا يلبث أن يستصغر نفسه بجانبه و يشعر بتفوقه عليهِ وكثيراً ما يسائل نفسه عما اذا كان في استطاعتهِ أن يعمل عمله و يكون في وداعتهِ ولطفه ان أتيح له ان يكون يوماً ما في مركزه وجاههِ

ان الدعة والطيبة لا تنزعان الحسد من القلوب المنافسة فقط بل تكونان واسطة أيضاً لاستمالة قلوب الناس ومحبتهم . وما الذي يضرّ الاغنياء من حمل الغير على حبهم بدلاً من إثارة البغضاء والعداء في نفوسهم ؟

* * *

أضرّ من الكبر الذي يسببهُ الغنى العتوّ الذي ينشأ عن السلطة . والمراد بالسلطة كل نفوذ يخوّله المنصب سواء كان مقيداً او بلا قيد . نعم انهُ من المحال أن يبقى العالم بلا نظام عام يفضي بمقاليد ادارته وتدبيره وتنفيذ مقتضياتهِ الى أناس تتفاوت درجاتهم بتفاوت العمل المطلوب منهم وانما الخوف كل الخوف والخطر الداهم هما في جهل الموظفين استعمال هذا النفوذ فيما وُضع له وعلى قدر مايسمح بهِ النظام العام بدون تعدٍ على الحرية الشخصية و بدون مسّ كرامة الناس بلاحق . الخوف كل الخوف من سوء استعمال السلطة وتشويه سمعتها عند

الجمهور فيقع الضرر على رؤوس الحاكمين المستبدين . ان السلطة والنفوذ واطلاق اليد بالحكم تحدث في عقل الموظف تأثيراً سيئاً يختلف زيادة ونقصاً باختلاف سعة العقل وضيقه . والحكيم الثابت من لا تفسد السلطة نفسه ولا تحوّله عن جادة الحق

الاستبداد في ذاتهِ نوع من الجنون النوعي يتسلط على عقول الحاكمين وهو مرض عام لم يخلُ زمان من أعراضهِ وظواهره . والظالم كمين في النفوس تظهره القوة ويخفيهِ الضعف . والظالم في الحقيقة أكبر عدو للسلطة ومن أقوى أسباب الانقلاب عليها . وكل من يأمر وينهي ويسخّر الناس لمجرّد التلذّذ باخضاعهم لشخصه يسيء الى نفسهِ قبل أن يسيء الى الناس لأن العبرة بالعواقب لا بالأوقات القليلة التي تتمتع فيها النفس بميولها الفاسدة

وليس من ينكر ان في كل نفس شعوراً داخلياً ينفّرها من الحكم المطلق والاذعان لغير النظام العام . والعقل يحكم بصحة هذا الشعور واحترامهِ لأن الناس في الحقيقة متساوون وقد خلقوا أحراراً . فليس هنالك ما يحمل زيداً على الخضوع لبكر لمجرد انهُ زيد وهو بكر لأن استسلام الأول يذلّه ويحقره في عيني نفسه وفي عيون الناس . والرضاء بالهوان دلالة على صغار النفس وانحطاطها

وليس من يدرك الضرر الذي ينجم عن الاستبداد والصلف مثل من عاشوا في المدارس والمعامل والجيش وادارات الحكومة ورأوا من

قرب اكثر العلائق التي بين الرؤساء والمرؤسين . ان الاستبداد مما يزهق النفوس الحرّة ويحوّلها الى نفوس مستعبدة ولكنهُ ينفث فيها روح الثورة والفوضى . ويظهر ان هذه النتيجة الوخيمة التي لا تتلئم مع صوالح الهيئة الاجتماعية تكون اكثر خطراً واشد تأثيراً على النفوس كلما خرج المستبدون المرهقون من صفوف الشعب وتناسوا منشأهم وأثقلوا ظهر الأمة بما استطاعوا من انواع العتوّ والارهاق

والمشاهد ان الجندي في الجيش أشدّ صلفاً وقسوة من الضابط وهذا أقسى وأشدّ على مرؤسيه من القائد على الجميع . وقد ترى في المنازل والقصور أن السيدة التي لم تنل حظاً وافياً من التعليم والتربية او التي ينتشلها زوجها من درك منحط تكون اكثر عتوًّا وقسوة على الخدام من بنات البيوتات وذوات التربية العالية

* * *

من خطأ الحاكمين تجاهلهم ان الواجب الأول على ذي السلطة الدعة والخشوع لأن الغلظة والصلف ليستا من السلطة في شيء بل هما تدلان على الضعف وتنشآن من الحماقة . السلطة مستمدّة من النظام والقوانين فهي للقانون والنظام وليست للاشخاص . والقانون فوق المصالح الشخصية وفوق الناس وفوق الرغبات والأغراض . فمن أهم واجبات الموظفين الذين يمثلون القانون ان يحترموه ويخضعوا له ويسيروا على مقتضاه ليكونوا قدوة صالحة لغيرهم فان الحكم والطاعة

في ذاتهما توأمان لا يفضل احدهما الآخر . والطاعة ان لم تكن اختيارية لشعور المرء بضرورتها طبقاً للنظام العام فهي ليست بالطاعة . ولو تأمل الناقد في أسباب الفوضى والثورات لعلم ان منشأها جهل الحاكمين باغراض النظام واستعمالهم السلطة والنفوذ في غير موضعهما

وليس من يعرف سرّ الحكم وروح الطاعة غير المعتدلين الذين لا يرهقون العباد فتراهم ودعاء عند الشدة تلطف كلماتهم وقر القسوة ويخفف لينهم وطأة النظام على النافرين الجامحين فينالون ما يتطلبهُ القانون والنظام وينفذون ما شاؤا من غير حاجة الى الاعتساف ووسائل القوة . ومن شاء ان يطلب الى الناس عملاً او تضحية فعليهِ ان يبدأ هو بها قبل ان يطلبها من غيره . ان العين لترى كثيراً من القواد المستبدين فتحسبهم غزاة اشداء وما هم اذا جاء وقت الحاجة الاَّ ضعاف لا حول لهم على من تحت امرتهم لنفور النفوس منهم ولأن الجبن من صفات المستبدين . وكم من هزيمة أو اندحار نجم عن إبغاض الجنود القائد المستبد ! وكم من القواد تراهم ودعاء حتى لتحسبهم من الجنس اللطيف فاذا ما تأججت نار الوغى وحمي وطيس الحرب كانوا روحاً تنشط النفوس وتشدّد العزائم فترى الجنود تحت امرتهم يفتدونهم بالارواح ويعترضون سبيل الخطر غير حافلين بالحياة ولا فزعين من هول الموت . فمن شاء ان يطاع ويحترم فعليهِ بالاعتدال في الحكم ليملك القلوب قبل اخضاع الرؤوس . فان من السهل على النفوس

الخضوع مع الحب وصعب بل ومحال ذلك عليها مع البغض والكراهية

* * *

ان الرجل الذي ينفخ اوداجه الكبر وتعميه الخيلاء حتى يقول انا هو القانون هو الاحمق المتعجرف الذي يهيج روح الثورة والتمرد في الافئدة والقلوب . ومثله واشد منه خطراً من لا يريد ان يخضع لروح النظام ولا يريد ان يعترف بوجود سلطة قاهرة يدين لها مع الاحترام

في الناس كثير من هذا النوع الفاسد يهيجهم ويسوءهم النظام على وجه العموم . ويحتقرون كل رأي لسواهم وان كان صواباً وكل انتقاد وان كان على حقيقة . ويرون كل سلطة وان كانت شرعية ومن دواعي العدالة تعدّياً على الحرية الشخصية . أولئك فوضى لا يعترفون بسلطة ما ولا يخضعون لغير أفكارهم السخيفة وعقولهم القاصرة ولا يرون من المصلحة العامة الاَّ ما كان منطبقاً على أغراضهم ومصالحهم الشخصية . ولا أظن الحشرات المؤذية والأمراض الوبائية أشدّ خطراً على البلاد والعباد من هذا الفريق السقيم

ويدخل في عداد المتكبرين كل مرؤوس يشمخ بأنفه ولا ترضيهِ معاملة رئيسه وان حسنت ويظن كل اشارة منهُ تحقيراً له أو حاطة من كرامتهِ جارحة عواطفه . فهؤلاء فريق لا يستطيع أكرم الناس وأوسعهم حلماً ارضاءهم وهم يؤدون أعمالهم بتذمر كأنما هم أرقاء

مسخرون . ولاشك في ان منشأ روح الكبرياء التي تنفخ أوداج أولئك الحمقى هي الانانية وحبّ الذات . فعسير عليهم أن يؤدوا عملهم تاماً جيداً وكثيراً ما يكونون سبباً في المشاكل والتهويش على أعمال وحياة من يعملون بينهم لسوء نياتهم وخبث نفوسهم

ومن يعني بدرس طبائع الناس درساً دقيقاً يرَ الكبر متفشياً منتشراً وله مواطن عدة بين من اشتهروا بالتواضع . وقد تشتد وطأته على البعض حتى ليكون حاجزاً بينهم و بين أقرب الناس اليهم ويكوّن من المطامع واحتقار الغير حصناً منيعاً لهم يصدهم عن الناس . والكبر سواء أظهر ام بقي كامناً في النفس من أردأ الصفات التي تجرد صاحبها من الانسانية وتمثله عدوًّا للجنس البشري على الاطلاق . والمتكبر فقيراً كان ام غنياً يقضي حياته معتلاً محزوناً منعزلاً عن الناس ويكون دائماً سيئ الحظ لدرجة غير محدودة ويسبب من المشاكل ما يشقيه ويتعب من يربطهم به العمل وسائر الروابط الاجتماعية

ومن المؤكد ان معظم الكراهية والبغضاء التي تتولد بين الناس في سائر الطبقات تنشأ غالباً من هذا الداء الوبيل . نعم لا ينكر ان اختلاف المصالح وتناقض المنافع والمزاحمة على المراكز الحيوية والاجتماعية تسبب العداء بين الناس وتجعل بينهم حوائل وموانع ولكن الكبر يجعل هذه الحوائل سدوداً عالية سميكة يقف المتكبر خلفها وجلاً يندب حظه ويتساءل مدهوشاً عما اذا كانت قد انقطعت كل علاقة بينه و بين الناس

كل من يكون على شيء من العلوم والمعارف ويضن على الجمهور بمعلوماته هو ممن أخذ الكبر بخناقهم ووسمهم بميسمه الشائن لان رقي الهيئة الاجتماعية لا يتم الا بنشر التعليم الصحيح وعناية المتعلمين بأمر غيرهم . ومن لم يفعل فهو مقصر ملوم

ومن عداد المتكبرين المعجبين بأنفسهم كل عاقل يحتقر من قضى عليه نكد الطالع بالجنوح عن السبيل السوي فارتكب وزراً أو أتى امراً إدّا . فمن لوازم الانسانية الشفقة وعـدم الافتخار بفضائل النفس والتساهل مع المسيئين وقبول معذرة المخطىء . وكل فضيلة دالة أو مختالة تقل قيمتها الذاتية ان لم تتلاشى وتزول

ومن الخطأ الحط من قدر المواهب والكفاءة الشخصية بافتراضهما واسطة للظهور والكبر لأن الفضل كله راجع الى كليهما معاً او الى أحدهما . واستعمال الثروة والجاه والسلطـة وعواطف القلب والعلم والفكر لمجرد الزهو والكبر يقلل من فائدتها العامة ويحوّلها الى أسباب للشقاق والأذى لأنها لا تثمر ولا تفيد الاَّ اذا حسن استعمالها وكانت مقرونة بالتواضع والحكمة

كل دين واجب وفاؤه . والشريف من يدفع ما عليهِ رغبة في اداء الحقوق لا رهبة من الوسائل القهرية . وعدم الوفاء يكون اما عن

عسر واما عن تقصير او عن رغبة في هضم الحقوق . ولكن الشرف في الاعتراف بالحق ووفائه بغير مكابرة . وكل ما يملكه الانسان من متاع او يحصل عليه من ثمرات العقول دين عليه للنـاس يؤدي لهم ثمنهُ . وليس في استطاعة الرجل اداء كل الواجبات المطلوبة منهُ فهو في حكم المعسر وواجب عليهِ الغض من كبريائه لأن المدين المعسر لا يرفع رأسه عتواً وخيلاء أمام الدائن الملحّ

وخير لذي المنصب والنفوذ ولمن في يده شيءٌ من امور العبـاد وتدبير النظام والادارة ان يكون متواضعاً لا غليظاً فظاً لأن الواجبات الجمة التي يتطلبها المركز اكبر من قوته مهما أوتي من المقدرة والكفاءة. والعاقل من يحكم على نفسه بالتقصير بدلاً من الدعوى الكاذبة والفخر

وليكن الاتضاع من صفات العالم الضليع لأن العلم وكثرة الاطلاع تدلّ المرء على قدر نفسه وحقارة معلوماته الكثيرة بالنسبـة للمجهول الغامض فما العلم الا خضمّ عجاج لم يغترف منهُ الناس غير قطرة واحدة . ليكن الاتضاع من صفات ذوي الحكمة والفضائل لأنهُ ليس من يعرف عيوب نفسه حق المعرفة . فالعين لا ترى سيئات النفس ولا تعرف ما يخبئهُ القدر بين ثنايا المستقبل وان اعوجاج المستقيم أسهل من تقويم المعوجّ وتحطيم الصحيح أيسر من اصلاح المحطم فكذلك السقوط اكثر امكاناً وأسرع تحقيقاً من القيام والارتقاء . ومن لا يعذر الناس ومن لا يشفق على الغير تقسُ عليهِ القلوب ومن

لا يلبي دعوة المستغيث تصم الآذان عن سماع صوته حتى يبحّ ويتلاشى

* * *

ليس الغرض مما مرّ محو الفروق الضرورية بين طبقات الهيئة الاجتماعية وازالة كل مميز للمراكز عن بعضها لان ذلك ضروري للنظام العام ومحتم وجوده لكمال الاجتماع . ولكنني أرى ان الفارق الذي يميز فرداً عن آخر ليس هو في المركز ذاته ولا في المنصب ولا في الرتبة ولا في الثروة وانما في ذات الانسان وشخصه

ولم تظهر صحة هذا القول في عصر من العصور مثل وضوحها في هذا الزمن الحاضر . ولهـذا رسخ في كل الاذهان تقريباً فساد الاعتقاد بضرورة سمو المميزات العرضية . ولم يعد للتاج والعرش تأثير على العقول والقلوب . ولاعاد القروي يرتجف ويهلع أمام سيف الضابط ورداء الجندي . ولاعاد للرتب والاوسمة تأثيرها الاول في النفوس لأن العالم أدرك ان لاقيمة لها في ذاتها وان قيمتها الحقيقية انما تكون في شخص حاملها . وأصبح من الهين على الشعوب خلع من لايحسن سياسة الملك بعد ان طال العهد بالاستكانة لشهوات الحاكمين وجور المتعسفين . وصار من الامور العادية معاقبة الضابط الذي يهين الناس بغير وجه حق اعتماداً على هيبة وكرامة ردائه العسكري . كل ذلك صار من الهينات لأن الغشاوة التي كانت تحجب عن البصائر نور الحقيقة والتميز أزالها مرور الزمن والتعليم وكثرة التجارب

وقد كان للاستبداد والظلم اكبر تأثير في رفع حجاب الجهل عن العيون ودفع الناس لاطّراح رداء الرق وكسر قيود العبودية . فلم يعد للاوهام قيمة الا في مخيلة المجانين والاطفال والاغبياء وأصبحت الاقدار على قدر الكفاآت الشخصية والمميزات الذاتية . ومن رام اعنات الناس وارغامهم على احترام ذوي المناصب لوجودهم فيها او الاغنياء لمجرد الغنى والثروة يرهق هذه النفوس ويولّد فيها الكراهية بدلاً من الحب والاحتقار بدلاً من الاحترام

مما يؤسف له انتشار روح خبيثة في كل أفكار الشعوب نشأ منها الاحتقار العام ومقت ذوي المناصب وأفراد الطبقات العالية . وليس ذلك لعدم وجود المميزات الشخصية الجديرة بالاكبار والاعجاب وإنما لغطرسة أولئك الكبراء وتعمدّهم تناسي واجباتهم نحو الاجتماع وروابطهم بالانسانية ولعدم احترامهم الناس الاّ من يكون معهم في مستو واحد أو يسمو عنهم جاهاً وسؤدداً

ان الرفعة لا تخلي العظيم من المسئولية ولا تكبر بهِ عن الاستسلام للقوانين والنظام العام لأنها فوق كل عظمة وجاه . ومن الغرور والجهل نبذ التواضع والوداعة تظاهرا بالارتقاء والرفعة واللوم راجع الى الانسان نفسه ان لم يعرف كيف يكتسب احترام الناس

ومن الثابت عقلاً وتجربة استحالة وفاء من لا تصدق في معاملتهِ وحبّ من تبغضهُ واحترام من تحتقره وتنكر عليهِ كرامة النفس . فلا

بدَّ لحفظ نظام الاجتماع من وجود الاحترام بين الافراد وذلك لايكون الاّ بوجود المميزات بينهم. والمميز الحقيقي بين الفرد والناس انما هو التفوق بالكفاءة وحسن الخلق وسلامة الضمير وشرف النفس

والمشاهد ان كل ذي رغبة في الرفعة والارتقاء يخفض من كبر النفس والغلواء ويقوّم من اعوجاجه بقدر ما يستطيع ويظهر ودوداً وديعاً حتى مع من يتحتم عليهم احترامه وطاعته . وعلى قدر تساهله في انكار ذاتهِ والتخفيض من كبريائهِ تكون منزلته في القلوب والانظار . فكأن الاحترام والكبر خلقا على نسبة عكسية في كل أدوار الحياة وبين كل أفراد الهيئة الاجتماعية مهما اختلفت الازمان والظروف والأسباب

التربية والاعتدال

لما كان الاعتدال من نتائج العقول الحكيمة كان للتربيــة تأثير فعلي فيها ونفوذ لا ينكر . والمشاهد الآن ان الناس تعني بالتربية على وجهين . الأول تربيــة الاطفال على مقتضى رغبات الآباء والثاني تربيتهم على مقتضى أهوائهم الذاتية

وفي الحالة الأولى يكون الطفل في اعتبار الملاذ الكمالية للوالدين

وينزل منزلة ما يملكون من المتاع والماديات . وقد تقلّ درجة اعتباره لديهم على قلة وكثرة عواطفهم . ومن المحقق انهُ كلما زاد ولعهم بالمنافع المادية كلما قلّت قيمة الاطفال في أنظارهم وجفّت ينابيع المحبة والحنوّ في قلوبهم . فان شبَّ عاش تحت قدمي والديهِ خاضعاً لارادتهم لا لمجرّد واجبات البنوة بل لتجرده من كل ارادة . والفكر ينقاد مع الاعتياد الى الاستسلام والارادة النفسية الى الضعف فالزوال والقلب الى الجمود ثم يموت فيهِ الشعور وكل العواطف ويصير الشاب عبداً مسلوباً كل مزايا الانسان العاقل الحرّ . فلا ينشأ الاَّ على ما شاء والده واقتضتهُ مصالحهُ الشخصية ومعتقده الديني ومبدأه السياسي وذوقهُ الخصيص بهِ . ولا يفكّر ولا يتكلم ولا يعمل ولا يتزوج الاَّ بارادة وليّ أمره . وربما كانت هذه السلطة المطلقة في يد من لا مبدأ لهم ولا ارادة فيكونون سبباً في إفساد تربية الابن وفي نشأته على غير صالح الهيئة الاجتماعية . وكثيراً ما يتفق ان يكون للطفل ارادة قوية ونزوع الى الاستقلال فيبذل ذووه غاية جهدهم في تذليله بالقوة والاعتساف فان تعذر عليهم ذلك فباللطف والتدليل حتى تستأنس نفسه وينطبع على ما شاءوا فيعيش بينهم وبهم ولهم

وليس هذا النوع من التربيـة محصوراً في بعض العائلات بل منتشراً بين كثير من معاهد التربية حيث تكون الخطة الموضوعة للسير عليها قاصرة على اخضاع كل الملتجئين اليها وقهرهم على التكوّن

على الصورة التي يريدونها . وهذا هو الاعتساف بكل معانيه والتحكم في غير وجه الصواب والحق والتسلط الغير الشرعي وتغلب القوة على الضعف بغير مسوغ لاجتذاب الافراد الى غاية موضوعة

وكثيراً ما يقتنع الانسان بأن التربية على هذا الشكل هي التربية الصحيحة المفيدة للنوع الانساني وللاجتماع على الاجمال لأنها يسهل على المربي القيام بمثل هذا النوع من التربية او الاستعباد ويسهل تضليل الناس وتفهيمهم ان هذا الاسلوب هو الوسيلة الوحيدة لتوحيد المبادئ والمعتقدات واللغات والمشارب والأذواق . والحقيقة انه واسطة لتجريد الخلائق من كل ارادة ونزوع الاَّ ما يسمح بهِ الأوصياء والمدبرون

انهم يريدون ان يكون الناس من نوع واحد وفصيلة واحدة كسائر النباتات والحيوانات التي تعيش في مكان واحد او في اماكن متشابهة بطبيعة الارض والطقوس . ولكن الانسان غير النبات والحيوان وهذا التقييد مضرّ بهِ حابس حريته مؤخر رقيه . وان الناس ليختلفون في الطبائع والميول والرغبات والهوى حتى ليعوزهم كثير من وسائل التربية ليكون لكل فريق ما يوافق طبيعته واستعداده . والنقص والتقصير في استكمال هذه الوسائل هما سبب الفساد الذي يعتور التربية فلا تؤدي الى الغرض المقصود منها

والتربية التي يكون أساسها الضغط وتقييد الحرية كثيراً ما تسبب

ثورة النفوس وانفجار براكين الحقد والكراهية واندلاع لهيب الانتقام فتكون سبباً للفساد والمشاكل بدلاً من الخضوع والاستسلام . واذا حسنت الظواهر ولم يحدث حادث ما تتغلّب القوة على الضعف يبقى الداء كميناً والنار دفينة الأول على خطر حالاته والثانية على أشد ما تكون من التسعّر لا يخفيهما عن الظهور غير حجاب كاذب وستر لا يدوم طويلاً . ولا يكون وراء السكون الظاهر غير التذمر والحقد الأبكم والثورة المتحفزة للوثوب وسحق كل ثقل ضاغط

والتحكم اعتسافاً وقوة يحتّم الطاعة فتبدو مظاهرها فقط و يخلق الرياء في البيئة المغلوبة على أمرها و يكون واسطة لوجود النفاق والمخاتلة واللؤم بعد ان يغرس في القلوب الخبث والشرّ والكيد وحب الانتقام. فإذا كانت هذه هي ثمار هذا النوع من التربية فهو ضار وخطره أشدّ من الخطر الذي ينشأ من الاهمال او من ترك الناس همجاً بلا أخلاق ولا نظام

* * *

أما النوع الثاني فهو على عكس الأول في العنـاية و ينحصر في ترك الطفل على هوى النفس . فلا يلبث بعد وضعه أن يكون له المقام الأول واليه تتجه عناية كل فرد من أفراد العـائلة يزعجهم صراخه ونحركهم جميعاً لفتة منهُ أو اشارة بيده . وإذا ما بكى ليلاً هبّ الراقد واستيقظ النائم . فاذا درج كان سرور أهله وأسعدهم حظاً من نال

حظوة في عينيه وابتسامة من ثغره . واذا ما اشتدّ وترعرع كان موضوع اهتمام الجدّ والوالد والخادم والمعلم والوالدة والاخوة والاخوات وكل أفراد البيت . ولا يلاحظ أحد ما ينتج من ذلك من التدلّل وصلابة الرأي والعناد والانانية وعدم الاحترام والقسوة الا بعد فوات الوقت وضياع فرصة الاصلاح والتقويم . فيكون هذا مدعاة لفساد خلق الصبي وعدم مبالاته بالذين كانوا سبب حياته وينبوع سعادته وهنائه

وهذه التربية واضح عيبها جليّ قبحها سيئة نتيجتها عقيمة الا في الافساد . وهي عامة عند كل من لم يعنِ بالماضي ويستطلع أمر المستقبل من عبر الايام وحوادثها وعند من لم يقف على شيء من النظام والتقاليد والآداب القوميـة والأخلاق الفاضلة وعند كل من يكتفي بالظواهر عن الحقائق وبالقشور عن اللباب وعند الذين يظنون الحياة في الزهو والخيلاء وانكار حقوق الغير وهضمها والميل الى جانب القوة

ان هذه التربية لتقوي في النفس الميول الشهوانية وحب الاستبداد والظلم وهي سيئة العاقبـة شديدة الضرّ كالنوع السابق . والاكثر ضرراً وشؤماً على الهيئة الاجتماعية اجتماع النوعين وتوفّر الرذيلتين في الفرد الواحد فان ذلك يولّد التقلب في المبادىء والتنوّع في المظالم والتراوح بين البهيمية والوحشية وحب الاستسلام والصغار والنزوع الى الثورة والتمرد

والواجب أن لا تكون التربية وقفاً على رغبات الوالدين ولا

جرياً مع ميول الطفل واهوائه لانهُ لم يخلق متاعاً لأبويهِ ولا للتطوح مع اهواء النفس وانما خلق للحياة فيجب أن يربى وفقاً لمقتضيات الحياة

والغرض من التربية صيرورة الطفل عضواً عاملاً في الهيئة الاجتماعية متشبعاً بالانسانية وحب الاخاء والحرية ونفع الغير . وكل تربية لا ترمي ولا توصل الى هذه النتائج تكون عقيمة فاسدة لا تصلح لغير خلق المشاكل والاضطرابات وتقويض أركان الراحة والسلام

* * *

ان الحظوظ كلها وكل ما يمرّ على الطفل من نشأتهِ الى شيخوختهِ يمكن اجمالها في كلمة المستقبل . تلك كلمة مفردة ولكنها الشغل الشاغل للأفراد والجماعات والشعوب وكل العالم . وينطوي تحتها كل ما مرّ من الآلام وما سيجيء منها وما يبذل من الجهد في الحاضر وما تتعلق بهِ النفس مع الآمال والأماني . والطفل في الصغر قاصر عن ادراك معاني هذه الكلمة وأهميتها وتأثيرها في حياتهِ لأنهُ قليل الادراك . وحيث انهُ ينشأ تحت رحمة وكفالة ذويه فهم المكلفون بتوجيههِ الى المنهج الذي يحسن اتباعه وبارشاده الى ما يزيح عن عينيه غشاوة الجهل ليرى الغرض الحقيقي من الحياة

وكل من فكر قليلاً يرى ان تأثير التربية ليس قاصراً على الطفل والعائلة وانما هو واقع على مجموع الأمة وكل الهيئة الاجتماعية وعلى كل المنافع والمصالح العمومية . فيجب دائماً تمثل الطفل في دوره الجدّي

وحياتهِ القابلة لتكون العناية بتربيته موجهة دائماً الى المنفعتين الشخصية والاجتماعية

وقد يتبادر للذهن لأول وهلة تباين المصلحتين وتناقض الامرين واستحالة الجمع بينهما لأن من خصائص المنفعة الشخصية حب الذات ومن خصائص المنفعة العامة نكرانها مع انهُ لا يمكن الفصل بين الاثنين لالتحامهما وشدة تقاربهما . ومن المحال أن يحفظ الانسان عهد الاخاء ويضحّي لذّاته الخاصة بغير أن يكون حكيماً ولعقله السلطان المطلق والنفوذ التامّ على القلب والنفس . والانانية وحب الذات تطّرد مع هذا السلطان اطّراداً عكسياً ان ضعف قويت وان اشتدّ ضعفت او زالت . ولا يتأتى تحكّم العقل وتسلطه على النفس والعواطف الاّ بالتجاوز عن المرائي الظاهرية وسبر غور حقيقة الوجود والغرض منهُ وتمثّل الروابط الكثيرة التي تربط الانسان بالانسان وترفقهُ بهِ في كل غاية وسبيل

ولا يكفل تحقيق هذه الغاية الا العناية بالطفل ودرأ كل مؤثرات الفساد وعدم النظام لأن الانسان معرض لفساد الاخلاق من تأثير المؤثرات الخارجية والعدوى الاخلاقية ومن استسلام النفس للميول وتغلّب الاهواء على العقل . والضرر الخارجي الذي ينشأ من استبداد المربين وسوء تصرفهم عظيم الخطر . وليس من ينكر فساد مبدأ تسلط القوة على الضعف لمجرد انها قوة وهو ضعف . فالتربية الحقة ما كانت

على غير هـذا المبدأ وقامت على انكار الذات وكل ميول النفس الخبيثة التي تسبب النفور والكراهية والعداء

التربية الحقة ما قوّت الروح وأخضعت الجسد وحاجاته فكان العمل بارادة العقل لا بحكم الجسد او هوى النفس . وان الحدة والنزق ليكونان على أشد حالاتهما في بدء الحياة والشباب فان لم يكن هنالك قوة من الارادة تكفل كبح ذلك الجماح اختل توازن المرء وظهر ضعف تربيته وسوء خلقه . فمهمة التربية قائمة تقريباً على تعهد الارادة وتقويتها في نفس الطفل وتطهيرها من كل ميل فاسد ونزوع أناني ليدّخر من القوة في نفسه ما لا ينفد بل يزيد مع طول العمر بغير شذوذ . فيكون العمل اذ ذاك نتيجة الارادة والعقل لا طوعاً لارادة اخرى او استسلاماً لسلطة خارجيـة . وهذه هي الحرية التي يتطلبها الناس من غير الوجهة الصحيحة

والسلطة المطلقة التي في يد الآباء والمعلمين والمربين يكون تأثيرها في الطفل تأثير العوسج الذي يخيم على النبات فيذبله ويميته. وأما السلطة التي تستمد قوتها من الحكمة والحقائق وتتجرد من الانانية ويكون غرضها تقويم اعوجاج الطفل وتطهير نفسه من كل الميول والنزعات المرذولة فانها له كالحرارة والهواء الطلق للنبات . ولهـذه السلطة من قوة الحق ما يغذي الروح غذاء يقويها ويصلحها فالتربية بغيرها نوع من من الشطط والحمق . ومن خصائصها مراقبة السلوك

وتكييف الطباع ومقاومة الميول الفاسدة واستئصالها وهذه هي واجبات المربي الحقيقي . فلا يكون في نظر الصبي كالحاجز الموضوع صورة حول الحدائق لا يمنع الطارق ولا يقف في وجه العابث يجتازه بوثبة ويحطمه بدفعة بل يكون كالسور الشاهق يحفظ المتاع ويدفع شر العوادي

والنفس في بدء النشأة لم تتشبع بالشرور كما انها لم تتهذب ولم تصقل فيسهل اصلاحها واظهارها على الصورة التي يريدها المربي . فان كان خبيراً بمهنته الدقيقة غرس فيها المبادئ العالية وعلمها التمسك بما لها من الحقوق واحترام وتأدية ما عليها من الواجبات وأوقفها على حقيقة الحياة وما لها من القيود والمزايا . فتشب على احترام الحقائق وتقديسها واحتقار ما عداها وعلى معرفة حقوق الذات والناس وعلى اداء الواجبات مع التواضع

ويمكن تلخيص التربية الصحيحة في انها هي التي تخرّج رجالاً أحراراً يعرفون معنى الحياة ويطالبون بما لهم ويؤدون ما عليهم ويحبون غيرهم مع احترام أنفسهم

* * *

المستقبل وحده هو الذي يتقلب وتمرّ أدواره على الحدث الناشئ الاَّ انهُ يجب تذكيره بالماضي وحمله على احترام السلف وتقديسهم لان الفضل راجع اليهم في كل التقاليد الحسنة وتكوين المدنية والرقي الاجتماعي . فيجب على الآباء احياء ذكرى الماضي في نفوس الابناء

لان فيهِ العبرة والموعظة والهداية في طريق المستقبل المظلم . ولا شيءَ أوقع في نفس الطفل ولا أنجع لخلق روح التواضع في قلبه الاّ مشاهدته الوالد والوالدة يؤديان واجب الاحترام والاجلال لجده الشيخ الفاني مثلاً والا تحققه تبادل الاحترام بين أفراد البيت جميعاً لان وجود هذه العاطفة بين الرجال يكون سبباً لغرسهـا في نفس الناشئ فيشب على حب الاحترام والشعور بكونه من مقتضيات التربية والواجبات

ولا يفوت العاقل ان الخادم آدمي له جميع حقوق الانسان وان افتقاره للارتزاق من خدمة الغير ليس من دواعي التحقير والامتهان . فكل تحقير له وازدراء بهِ شذوذ عن الادب الصحيح ونقص في التربية والاخلاق . ومن أهمل ردع ولده عن الاغلاظ للخادم لا يلبث ان يرى النقص يتطرق الى نفسهِ من حيث لا يشعر ولا يدري ثم تظهر نتيجتهُ بعد قليل في معاملتهِ لذات الوالدين ولسائر الناس

والاعتقـاد بأن الطفل الصغير لا يعرف الاحترام ولا يدرك معناه خطأ لأن الطفل يعجب و يستحسن و ينفر و يستقبح ومن يدرك ذلك يعرف كيف يحترم . والاحترام ضروري ومن الحاجات التي يجب أن تتشبع بها نفس الصبي و ينطبع عليها خلقه . والاهمال يقتل هذه العاطفـة و ينزعها من القلب والعقل . ولعدم تحققها بين الكبار تأثير سيء في نفوس الصغار ولهم منها نموذج فاسد يثبت لهم فساد التعاليم والمبادىء الصحيحة التي تقتضيها التربية

واذا كانت بساطة القلب وسلامة النيـة من الخصائص المحترمة فان الاعتدال في الحيـاة هو خير الوسائل الاعدادية لهذه التعاليم . والحكيم من يجتنب كل الاسباب التي تؤدي الى نفخ روح الخيـلاء والكبر في نفوس الاطفال مهما عظم جاهه وكثر ماله . واختيار الملابس الانيقة وكثرة الزينة مما تساعد على انتشار هذه الروح الخبيثة وتغري الطفل على الاعتقاد بأن المراتب في المناصب والأقدار بالدرهم والدينار

وهنالك كثير من أنواع الفخفخة والحمق في التعليم تكون نتيجتها افساد الصغار وتعويدهم احتقار الوالدين والعادات القومية والعمل المفيد والوسط الذي نشأوا وعاشوا فيـهِ . والتعليم على هذا الشكل المشوّه مصيبة عظيمة وخطب جسيم فانهُ لا يخرّج الاَّ أفرادًا يتذمرون من كل شيء وينفرون من أصلهم وأرومتهم ودينهم و بلادهم . فاذا ما انفصلوا عن الجذع الذي تفرّعوا عنهُ وخرجوا من أصله يقلّبهم الطمع والغرور في كل المهاب كما تقلّب الريح الشديدة أوراق الشجر اليابس

كل شيء في نظام الكائنات يتمّ بالهدو والتؤدة لا بالطفرة والقفز فليقتدِ الانسان بالطبيعة في سيرها المعتـدل ولا يخلط النجاح والارتقاء بهذه المناورات العنيفة الحادة والقمزات الخطرة . وليبعد كل البعد عن تربيـة الأولاد لتعويدهم احتقار العمل والرقي والاعتدال والأهل والاقران والفقر لأنهُ لا يكون أتعس من حال الامه التي تكون نتيجة التربية فيها تأفف ابناء الفلاحين من المزارع والبحارين

من البحر وحرف الآباء والجدود . ولا يكون أشقى من حال المجتمع الذي يزدري بهِ الابناء آباءهم ويخشون من الظهور معهم أمام الجمهور خشية انتسابهم اليهم . ولا يكون أحسن من حال الأمة ولا أسعد من البلاد التي يفتخر بنوها بآبائهم وأحفادها بجدودهم والناس بحرفهم كلٌّ في مهنتهِ عن رضاء ورغبة في العمل والاجادة ويؤدي مقتضيات عمله بأمانة مع الاقتناع بالحاضر وحسن الظن بالمستقبل

* * *

الغرض من التربية كما مرَّ تخريج رجال أحرار فمن شاء أن يربي أبناءه على مبادئ الحرية فلينفث فيهم من روح الاعتدال والبساطة ولا يخشى تأثير ذلك في السعادة فان الاعتدال من أسباب الحصول عليها لا من الوسائل المودية الى الشقاء والنكد

من الواضح أنهُ كلما كثرت لعب الطفل ووسائل السرور واللهو كلما كان اكثر ميلاً الى الكدر والبكاء . وفي هذا دليل على ان كثرة الوسائل الموضوعة والأسباب المختلقة للحصول على السعادة لا تنيلها ولا تأتي بالغرض منها ودليل على ان قلة هذه الاسباب او عدمها لا ينفي وجود السعادة وتمتع الفقير المقلّ بها . فليكن من اهتمام المربي عنايته بتعويد الطفل القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التورط في ابتداع الأسباب الوهميـة للسرور . وليضاعف جهده لاقناعه بضرورة بقاء الملابس والمساكن والملاهي وكل حاجات الانسان على أبسط

أشكالها التي تؤدي الغرض المقصود منها

إن البعض يجتهد في ارضاء رغبات ابنائه فيفعل ما يعلّمهم الشراهة والكسل ويثير فيهم ثوائر نفسية وميولاً لا تتفق مع أعمارهم ولا توافق طبيعة الجسوم فيجعلونهم ارقاء مستعبدين للشهوات والعادات لا احراراً مستقلين

ومع كون الترف يضني ويسئم الجسم فهو اذا قلّ بعد اعتياده يكون سبباً من اسباب الشقاء وعدم الرضاء بالمآل. وكثيراً ما دفع الانسان الى نسيان الكرامة الشخصية وبذل ماء الوجه والى تجاهل الحقيقة والواجب جبناً وسفالة

اما اعتياد البساطة في العيش وتكبد المشاق لاعتيادها والمرنة على الأعمال للتشدد وتقوية الجسم فانها من أعظم الوسائل المؤدية الى نجاح المرء في المعترك الحيوي وفوزه على المصائب ان صادفته في طريق الحياة. وان نتيجة التدرب على شظف العيش واحتمال الأتعاب لخير من ألفة الملاهي وكرع كؤس النعيم والراحة. وقد يخرج من اعتاد هذا في صغره الى مضمار التزاحم العالمي حرًّا مستقلاً قوياً شديداً يمكن الاعتداد بهِ والاعتماد عليهِ فلا يبيع ضميره ولا حريته بأي ثمن ويكون اكثر استعداداً للحصول على السعادة والتمتع بها من كل مدلل مترف

والمشاهد المعروف من التجارب الكثيرة ان وفرة اسباب العيش

والرخاء مدعاة الى الكسل وضعف الارادة وخماد الحواس والى كثرة الأوهام وانقباض الصدر لغير سبب وقد تُظهرُ الشاب متعوباً منهوكاً وفي شكل من طحنته الأيام . وليس أشق على الهيئة الاجتماعية من وجود فريق كبير من هذا النوع الانساني الساقط بينها فان عليهم وحدهم ظهرت في شكل الاوباء كل آثار الضعف والعادات المرذولة التي مارسوها في الحياة . وفي منظر ذلك الفريق التعس عبرة للناظر ودرس للمبتدئ فان العين تقرأ بين سطور التجاعيد المطبوعة على جباههم أحكم المواعظ التي تزجر وتردع العاقل

ان هذه الحال من الشقاء تنطق بأفصح عبارة مشيرة الى انّ السعادة كل السعادة في ان يكون الانسان عاملاً حياً في الاجتماع نشيطاً مقداماً غير خاضع لسلطان الشهوات الفاسدة وتأثير الغواية الضالة مالكاً عواطفه وارادته لينعم بطيبات الحياة ويكون لقلبه الخلو من المشاغل قوة على التعلق بالكمالات وحبّ كل جليل وجميل

* * *

الحياة المرتبكة تولّد سخف الافكار وهراء القول اما العادات الحسنة والانفعالات النفسية القويمة والبحث الدائم عن الحقائق فانها تنتج الحرية في القول والفكر

والكذب خصلة مرذولة من خصائص المستعبد الرقيق وهي ملجأ الجبان والبليد وقليل الهمة . اما من كان حرًّا صحيح الحرية

ورزيناً ثابتاً فأنهُ لا يخضع الاَّ لسلطان الحق والعقل ولا يخشى في نشر الحقيقة لومة لائم ولا جبروت المعتسف . والتربيـة الصحيحة تقضي على المربي بتعويد الاطفال الصدق وقول الحق بلا تمشدق ولا تحوير ولا تلعثم في كل الظروف والأحوال

ان فريقاً كبيراً من الجمهور يعدّ من الفظاعة وعدم اللياقة اعتماد الشخص على فكره عند التفكير وترك القلب لتأثير الوجدان والعواطف عند التأثر . ويستاء الناس من استعمال الانسان مواهبه الذاتية ومن اعتماده على قوته ونفسه . مع انهُ لا يوجد أفظع ولا أسفل من التربية التي تميت في الآدمي مواهب الانسان ومزايا تلك المواهب

يا للناس من سوء ما فعلوا ! ويا لله مما جنوه على النفوس وعلى الهيئة الاجتماعيـة بالضغط الشديد على الفكر والقول وبازهاق روح الحرية والاستقلال الذاتي بكل وسائل الاعتساف والارهاق كأنمـا يحلو لهم أن يروا الاطفال صوراً وألاعيب والرجال تماثيل متحركة بارادة الغير وآلات تعمل ولا تدرك !

هذا هو السبب الرئيسي في ضياع الإقدام ودلائل الحياة الحقيقية وتسلط السماجة والضعف وبقاء الانسانية بلا ارتقاء صحيح ولا تكمل صالح

الحقيقة مرَّة وجارحة ولكنها الحقيقة فليعلّم الحكيم ابناءه احترام أنفسهم والتمسك بحقوقهم وحريتهم الشخصيـة وليعوّدهم قول الحق صراحاً بلا تشنيع فيهِ ولا تلطيف من مرارتهِ وليحبب اليهم الاستقامة

والاحتفاظ بالكرامة حتى في حالات العسر وأخطر مزالق البؤس والشقاء فان بذل ماء الوجه أصعب على الشريف من هدر دمه وازهاق روحه

***

ليس في الصفات خير من السذاجة وسلامة الضمير وصفاء القلب وهذه فطرة الاطفال قبل ان تُفسد قلوبهم شرور المجتمع الانساني وقبل أن تنقل اليها عدوى الأخلاق عوامل الفساد . وليست السذاجة اختاً للحقيقة فقط وانما هي قوة أخلاقية لاخبث معها ولا نفاق ولا اضمار . ومن الأسف الشديد ان كثيراً من الناس يعملون على بتر هذه الصفة الحميدة وملاشاتها من الوجود بما استطاعوا من قوة وحول ويجهدون أنفسهم لاستئصالها من الحياة والفكر والتربية ويتعقبونها حتى في عالم الخيالات والأوهام . ولتعجلهم في جعل ابنائهم رجالاً قبل الاكتمال يسلبونهم كل صفات الأطفال ومميزات الطفولة وشأنهم في ذلك شأن البستاني الجاهل الذي ينزع عن الاشجار أوراقها الخضراء فلا تزهر ولا تثمر

والطفل بدون هذه السذاجة كالطير بلا ريشه فليتق الناس ربهم في النابتة وليحتفظوا ببقاء هذه الروح فيها لكي يتأتى للعالم ان يتطهر من ادران الكذب والنفاق والرياء فانها اكثف حجب لأخفاء الحقيقة وستر نور الهدى من العيون والبصائر وانها من أقوى المعاول العاملة لهدم الرقي الاجتماعي والتمدن الصحيح والرجولة الحقيقية

خاتمة

في كل ما تقدم من المباحث القدر الكافي لأدراك معنى الاعتدال في الحياة ومظاهرها . وفيه ما يثبت ابتعاد العالم عن الطريق السوي والوجهة الواجب الاتجاه اليها . وفيه ما يدلّ على الغرور العام والانصراف عما في الكون من سائر القوى الحيوية والسعادة وجمال الحياة

وكل من يستطيع التخلص مما ورّطه فيه التقليد والاندفاع مع تيار العصر ومقتضيات المدنية الكاذبة يتأتى له ان يشاهد بهاء الكون وجمال الطبيعة وان يتمتع بالسعادة الحقيقة الخالية من كل الشوائب والمنغصات مستهدياً بنور الحقيقة

وكل مقاومة للميول الفاسدة ونفورٍ من الشهرة الكاذبة وحب الظهور وكل رجوع الى التواضع والقناعة والحياة الهادئة يكون من أسباب قوة الهيئة الاجتماعية ورقيها ومدعاة الى بث روح جديدة في البيوتات وبين الافراد والى خلق عادات حديثة وتكوين بيئة راقية وتربية صحيحة عالية . فتتجه أفكار الشبان والفتيات مع الاعتياد والتدرج الى غايات شريفة وآمال صحيحة يمكن تحقيقها بسهولة . ولا يلبث هذا الاصلاح التدريجي والانقلاب البطئي ان يظهر سلطانهما على كل الهيئة الاجتماعية . وكما تكون متانة البناء على قدر صلابة الاحجار وقوة مواد التلاحم فكذلك تكون الحياة على قدر القيمة الذاتية في الافراد وقوة الرابطة بينهم

ولما كان الغرض الاساسي هو تكوين الاجتماع على آساس ثابتة ودعائم قوية وجب اولاً العناية بتقوية الاجزاء التي يتكوّن منها ذلك الاجتماع وهي الافراد لان كل ضعف فيهم ضعف في المجموع وشلل في جسم الهيئة الاجتماعية . واذا كان العامل على اية آلة محكمة يهمل أو لا يحسن العمل عليها فلا يكون للآلة ولا لما تصنع قيمة . وفي هذا المثل شبه قريب بين العامل على الآلة والعامل لرقي الاجتماع وكماله

ان الحياة جميلة في ذاتها محكم أمرها ولكن جلالها لا يظهر الاّ لمن يعرف كيف يدير حركة نفسه ويحكم اعماله وسلوكه . وكما أن غفلة العامل أو عجزه يفسد الآلة ويتلف المصنوعات فكذلك تهاون الانسان واغلاطه تشوّه جمال الحياة وتفسد هناءها وتنغّص عليه العيش . ولذلك وجب الاهتمام بتحذير الانسان والفاته الى تعرّف أساليب العيش والعمل في الحياة لكي لا يضرّ بنفسه وبالمجتمع ويكون حظه حظ العامل المهمل أو الجاهل الذي يسيء الى نفسه ويضرّ بسمعة المصنع الذي يعمل فيه

فليعتنِ الفرد بنفسه فيعمل ليتشبع بمبادئ الحرية والنظام والاخاء حتى يكون من أقوى عوامل التضامن والارتقاء لان هذا هو غرض الجميع والمقصد العام . والاعتدال وحده وانتشار روحه بين الجميع يقوّيان روابط الاجتماع والتضامن العام . وكل انحلال أو وهن فيها يرجع الى سبب واحد هو ضعف الفرد في ذاته وضعف رابطته بالآخرين . وليس في الناس من يستطيع ان يقدّر الأضرار التي تلحق بالهيئة

الاجتماعية من تنافر الأفراد والأحزاب والطوائف ومن حبهم الاستئثار بالسلطة والنفوذ للتغلب على الغير واخضاعه أو لهضم حقوقه وصوالحه فان في ذلك تقويض أركان السلام وهدم آساس التكوّن والاجتماع وتنغيص العيش وتكدير صفو الحياة وهنائها وقضاء على السعادة

وكل هيئة لم يسد بينها حب الاخاء وتفرد كلٌّ لصالحهِ الشخصي تكون هي الفوضى بكل معانيها . وشأن اعضاء مثل هذا المجتمع شأن ابناء العائلة الواحدة الذين يكونون عالة عليها يمدّون ايديهم للأخذ مما لها ولا يبسطونها للأخذ بناصرها

من لوازم الحياة التعامل وفيهِ تبادل المنافع والناس دائن ومدين فان لم يعترف المدين بما عليهِ ويؤده زالت الثقة بهِ وكفَّ الناس عن معاملتهِ. والناس مدينون للهيئة الاجتماعية بكثير من الواجبات والحقوق في مقابل النفع والفائدة التي تعود عليهم من عمل الغير فان لم يؤدوا ما عليهم عن رضاء زعزعوا الثقة المتبادلة وأضعفوا نشاط العاملين فأفسدوا نظام العالم وشوّهوا جمال الحياة

ومما يؤسف له تظاهر الانسان بمظهر المتفضل على الاجتماع والدائن المطالب بما له من الحقوق فان صحت دعوى الجميع فعلى من تكون هذه الحقوق وتلك الواجبات ومن هو المقصر في الاداء والمطالب بما عليهِ ؟

الأمة عائلة كثيرة الافراد ومن الاسباب القوية في تكوين الأمم الاشتراك والتضامن ونكران الذات للمنفعة العامة . فمن الحكمة التساهل

في المعاملة واغفال ما يمكن التجاوز عنهُ فان الشدة في المعاملة منشأ الخصومات . وليس في العالم من لا ينفر من الفظاظة والغلظة وسوء الخلق فكلها صفات وحشية تجرّد المرء من مميزات الانسان ولا تساعد على دوام الاحترام والحب المتبادل وهما من لوازم الاجتماع

ان الناس لتختلف في العمل والمهن فينظر الفرد الى ذاته من وجهة واحـدة وهي المظهر الاكتسابي وينسى احياناً حقيقته الطبيعية ومركزه في الاجتماع وعضويته في جسم الهيئة الاجتماعية . فينتج من ذلك ان الذي يشغل الانسان ويضع له خطة العمل والسير في الحياة هو السبب العارض الذي يفصله عن بقية الناس بالمهنة والحرفة ويفتنه بما لا يترك مكاناً في قلبه لحب الاجتماع الذي هو روح الأمم وحياة الشعوب . وينتج من ذلك ايضاً بقاء الذكرى السيئة حية في الأفكار لأن حبّ الاستئثار منافٍ لصالح الغير . وكل قوم غذّتهم هـذه الروح الخبيثة تنتشر بينهم الخصومات ولا يمرّ عليهم يوم واحد بدون حوادث سيئة وعواقب وخيمة . ولا يكاد أحدهم يلمح الآخر حتى تحيي في مخيلته ذكرى الشقاق والمزاحمة والخصومة . ونتيجة ذلك عدم الثقة وسوء الظن والحقد

فمن الصالح العـام التساهل والتسامح ونسيان الذكرى المؤلمة واذا كانت المنفعة جوهراً فكل ما يضرّ بها عرض فاسد . والمنفعة هي غاية المساعي ومرمى الغايات . والخصومة من المؤثرات السيئة على المنفعة فهي عرض فاسد . والعاقل من يتمسك بالجوهر ويغفل العرض

ما أجمل وأسعد الحياة لو كان التسامح هو مبدأ الوضيع والرفيع لأنهُ يلسم القلوب المكلومة وتريق النفوس المتسممة . والذكرى السيئة اكبر محرّك للعداوة والانتقام فلو سادت روح النسيان والتسامح زالت أسباب العداء والخصومات ونعُمَ بال المجتمع الانساني وكان التساهل أقوى ضمين لتوفر أسباب السكينة والسلام

فعلى هذا يكون لروح الاعتدال نفوذ قوي وسلطان فعّال في تقويم الأخلاق وتلطيف الأمزجة الحادّة والطباع الغليظة وفي إيجاد السلام في بيئة الأحقاد والمشاكل وبين الخصومات القائمة . وهي أيضاً من أقوى مطهرات القلوب وداعية الى تقريب الناس بعضهم من بعض . وأجلى مظاهر هذه الروح وأسماها تتضح ملموسة عندما تكون واسطة لتسوية الاختلافات والمشاكل القائمة بين الخصوم والمتنافرين بسبب تباين المصالح والمنافع وبسبب الرعونة والحمق وعندما تبدّل الخلاف وفاقاً والعداء حباً والامتهان احتراماً واجلالاً

هذه هي أحسن رابطة اجتماعية وبها يمكن تكوين الأمم وخلق الهيئة الاجتماعية الصحيحة على أمتن الآساس وأقوى الدعائم واظهارها في الشكل البديع الذي تتوهمهُ أملاً لا يتحقق وأمنية لا تنال

— انتهى —

فهرست

	صفحة
اهداء الكتاب	٢
كلمة للمعربة	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٤
مقدمة الطبعة التاسعة	٦
الحياة المرتبكة	٨
روح الاعتدال	١٨
الفكر والاعتدال	٢٤
القول والاعتدال	٣٩
الواجب والاعتدال	٥١
الاعتدال والمطالب	٦٦
الاعتدال والسرور	٧٦
المال والاعتدال	٨٩
الاعتدال وحب الظهور	١٠٠
الحياة العائلية والاعتدال	١٠٨
الكبر والاعتدال	١٢٠
التربية والاعتدال	١٣٤
الخاتمة	١٥٠

obeikandl.com

مطبوعات — مكتبة ومطبعة المعارف — لصاحبها بجيب متري

وهي الكتب التي قررتها نظارة المعارف العمومية بمدارسها الابتدائية والثانوية والعالية

مليم	اسم الكتاب	المدارس المقرر تدريسه فيها	اسماء المؤلفين
٢٥٠	حساب المثلثات المستوية	المدارس الثانوية والعالية	محمد بك خالد حسنين
٢٥	اجوبة حساب المثلثات المستوية	« « «	« «
٥٠	حساب تويدى جزء رابع	السنة الرابعة الابتدائية	المستر تويدى
٥٠	« « « ثالث	« الثالثة «	« «
٤٠	« « « ثان	« الثانية «	المستر تويدى ومحمد بك خالد حسنين
٤٠	« « « اول	« الاولى «	« « « «
١١٠	جغرافية مصر والسودان	« الثالثة والرابعة «	المستر ماردن واسعد بك براده
٤٠	الترجمة الابتدائية الجزء الاول	« الثانية «	« كارمن وتوفيق بك البرديعى
٦٠	جغرافية المستر اسمذارد جزء اول	« الاولى والثانية «	« اسمذارد « « «
٨٠	« « « ثانى	« الثالثة والرابعة «	« « « « «
٤٠	تربية الطفل	لمدارس البنات	الدكتور سروبيان
١٠٠	التدبير المنزلى الحديث جزء اول	« «	فرنسيس ميخائيل
٦٠	« « « ثان	« «	« «